

أَرْبَعُونَ حَدِيثًا في وصف القيامة

الحساب
الميزان
الصراط
الجنة والنار

إعداد:

أبي عمر الأثري

غفر الله له ولوالديه

الحمد لله الذي خلق الخلق لعبادته، وجعل الدنيا دار عمل وابتلاء، والآخرة دار جزاء وبقاء، ووعد المتقين بالنعيم المقيم، وأنذر المكذبين بعذاب أليم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، الذي بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وكشف الله به الغمة، فبين للناس أمر دينهم، وأخبرهم بما يكون في آخرتهم، وصفاً يوقظ القلوب، ويبعث الهمم، ويزكي النفوس.

أما بعد، فإن الإيمان باليوم الآخر ركن عظيم من أركان الإيمان، تتكرر الإشارة إليه في آيات القرآن الكريم وأحاديث النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم، لما له من أثر بالغ في تقويم السلوك، وإصلاح النفوس، واستحضار حقيقة المصير المحتوم.

وإن من أعظم ما يعين المسلم على ترسيخ هذا الإيمان، وتأمل حقائق الآخرة، الوقوف على الأحاديث النبوية التي وصفت مشاهد القيامة وأهوالها، وما يتبعها من الحساب والميزان والصراط والشفاعة، وما أعدّه الله تعالى لأهل الجنة من نعيم، ولأهل النار من عذاب.

ومن هذا المنطلق، جاء هذا الكتاب الموسوم بـ (أربعون حديثاً في وصف القيامة)، ليجمع طائفة مختارة من الأحاديث النبوية الصحيحة والحسنة التي تتناول وصف يوم القيامة وأحداثه العظيمة، بأسلوب يقرب معانيها إلى القارئ، ويعينه على التدبر والاعتاض، بعيداً عن الإطالة المملة أو الاختصار المخل.

وقد سلكت في إعداد هذا الكتاب منهجاً يقوم على: اختيار خمسين حديثاً تدور حول أحوال القيامة ومشاهدها المختلفة، مع العناية بتخريج الأحاديث وبيان درجتها اعتماداً على مصادر السنة المعتمدة وأقوال أهل العلم، وشرح المفردات الغريبة عند الحاجة، واستخراج أبرز الفوائد الإيمانية والتربوية والسلوكية التي تضمنتها

النصوص، مع ترتيب الأحاديث ترتيباً موضوعياً قدر الإمكان، ليسهل على القارئ متابعة أحداث ذلك اليوم العظيم واستيعاب دلالاتها. ولا يهدف هذا العمل إلى مجرد جمع النصوص، وإنما يسعى إلى إحياء معاني الاستعداد للأخرة في النفوس، وتعميق الشعور برقابة الله تعالى، وتعزيز الرجاء في رحمته والخوف من عقابه، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿بِأَيِّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْتِزُ نَفْسٌ مَّا قَدَّمْتُمْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨].

وأسال الله تعالى أن يجعل هذا الكتاب خالصاً لوجهه الكريم، نافعا لكاتبه وقارئه، وأن يرزقنا حسن الاستعداد ليوم المعاد، وأن يجعلنا ممن يأمنون الفرع الأكبر، ويفوزون برضوانه وجناته، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

الحديث الأول

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يَقْبِضُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيَّنَ مُلُوكِ الْأَرْضِ؟»^(١).

قوله صلى الله عليه وسلم: "يقبض الله الأرض" أي: يجمعها كلها بما فيها من يابسة وبحار وأنهار وأشجار قبضة واحدة، وقوله: "يطوي السماء" أي: يذهبها ويخفيها، قال ابن منظور: "الطي: نقيض النشر"^(٢). وأما قوله جل وعلا: "أنا الملك، أين ملوك الأرض؟" فهذا مصداق قوله جل وعلا: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، ومعناه: "لمن السلطان اليوم؟ وذلك يوم القيامة، فيحيب نفسه

(١) رواه البخاري (٤٨١٢) وموضح، ومسلم (٧٥٨).

(٢) لسان العرب: (١٥ / ١٨).

فيقول: (الله الواحد) الذي لا مثل له ولا شبيهه، (القهار) لكل شيء سواه بقدرته،
الغالب بعزته^(١).

وفي الحديث إثبات صفتي القبضة واليمين لله رب العالمين على الوجه الذي يليق
بكماله وجلاله، كدأب السلف رضوان الله عليهم في إثبات الصفات الإلهية بلا
كيف، قال البغوي رحمه الله: "هذه ونظائرها صفات لله عز وجل، ورد بها السمع،
يجب الإيمان بها، وإمرارها على ظاهرها معرضا فيها عن التأويل، مجتنباً عن
التشبيه، معتقداً أن الباري سبحانه وتعالى لا يشبه شيء من صفاته صفات الخلق،
كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق، قال الله سبحانه وتعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ
السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١]، وعلى هذا مضى سلف الأمة وعلماء السنة، تلقوها
جميعاً بالإيمان والقبول، وتجنبوا فيها عن التمثيل والتأويل، ووكلوا العلم فيها إلى الله
عز وجل^(٢)، وقال ابن كثير رحمه الله: "المسلك الأسلم في ذلك طريقة السلف:
إمرار ما جاء في ذلك من الكتاب والسنة من غير تكيف ولا تحريف، ولا تشبيه، ولا
تعطيل، ولا تمثيل"^(٣).

وفي الحديث: إثبات قدرة الله تعالى التي من مظاهرها أن الأرض بما فيها من
جبال وأشجار وأنهار وبحار يوم القيامة في قبضته، وأن السموات السبع كلها
مطويات بيمينه، تنزهه وتقدس وتعالى عما يقوله ويعتقده المشركون، وفيه أيضاً:
إثبات اليوم الآخر وما فيه من أهوال، نسأل الله السلامة، ونعوذ به من الخذلان.

الحديث الثاني

(١) تفسير الطبري "جامع البيان": (٢١ / ٣٦٦).

(٢) شرح السنة للبغوي: (١ / ١٧٠، ١٧١).

(٣) تفسير القرآن العظيم: (٥ / ٢٧٣).

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ مُكَوَّرَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١)، وجاء في بعض طرقه: «فِي النَّارِ».

مكوران: أي: مطويان، قد ذهب ضوءهما، وقيل: يلفان ويجمعان، ثم يلقيان في النار، وقال بعض أهل العلم: ليس المراد بكونهما في النار تعذيبهما بذلك، ولكنه تبيكيت لمن كان يعبدهما في الدنيا، ليعلموا أن عبادتهم لهما كانت باطلاً، وقال آخرون: لا يلزم من جعلهما في النار تعذيبهما، فإن الله تعالى في النار ملائكة وحجارة وغيرها لتكون لأهل النار عذاباً، وآلة من آلات العذاب وما شاء الله من ذلك، فلا تكون هي معذبة^(٢)، والله تعالى أعلم.

وفي الحديث: إثبات المعاد، وأن الشمس والقمر مخلوقان لله رب العالمين يفعل بهما كيف يشاء، وبطلان عقائد المشركين، والله المستعان.

الحديث الثالث

عن أبي هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بَيْنَ النَّفَّخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ» قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا، قَالَ: أُنْبِئْتُ، قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً، قَالَ: أُنْبِئْتُ، قَالَ: أَرْبَعُونَ شَهْرًا، قَالَ: أُنْبِئْتُ، «وَيَبْلَى كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْإِنْسَانِ، إِلَّا عَجَبَ دَنْبِهِ، فِيهِ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ»^(٣).

النفخ في الصور من مسائل اليوم الآخر التي يجب على كل مسلم الإيمان بها جازماً غير مرتاب، والصور: قرن عظيم، لا يعلم عظمته إلا خالقه، وقد وكل الله تعالى به ملكاً ينفخ فيه وهو إسرافيل عليه السلام، وهذا يحدث على نفختين: نفخة

(١) رواه البخاري (٣٢٠٠)، وابن بطة (٧٠).

(٢) انظر فتح الباري للحافظ ابن حجر العسقلاني: (٦ / ٣٠٠).

(٣) رواه البخاري (٤٨١٤) - (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥).

الصعق التي تموت الخلائق عندها، ونفخة البعث التي يحيون عندها، ومصدق ذلك في كتاب الله جل وعلا: **{وَنُفِّخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِّخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ}** [الزمر: ٦٨].

وقوله: "أبيت" هذا من كلام أبي هريرة رضي الله عنه حين سئل عن تحديد الأربعين، يعني: أمتنع من تعيين ذلك بالأيام والسنين والشهور، لأن النبي صلى الله عليه لم يعين ذلك، وقوله: "قينبتون"، أي: الأموات، "كما ينبت البقل"، أي: الزرع. وأخبر صلى الله عليه وسلم أنه بعد موت الإنسان تبلى عظامه كلها وتكون ترابًا، فلا يبقى من عظام الإنسان شيء إلا عظم واحد، وهو عجب الذنب، وهو العظم اللطيف الذي في أسفل الصلب، وهو رأس العصعص، وهو أول ما يخلق من الآدمي، وهو الذي يبقى منه ليعاد تركيب الخلق عليه يوم القيامة، قال أهل العلم: "هذا عام يخص منه الأنبياء، لأن الأرض لا تأكل أجسادهم"^(١)، ويلحق بهم كذلك بعض الفئات من المؤمنين كالشهداء ونحوهم، والله تعالى أعلم.

ويستفاد من هذه الحديث: مشروعية السؤال عما يشكل على المتلقي فهمه، والتورع عن الإجابة عما لا علم لدى المتحدث به، وفيه أيضاً: إثبات قدرة الله تعالى على النشأة الأخرى، وبعث من في القبور يوم تقوم الساعة: **{كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ}** [الأنبياء: ١٠٤]، فسبحان الخالق العظيم.

الحديث الرابع

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: **بَيْنَمَا رَجُلٌ وَقِفٌ بِعَرَفَةَ، إِذْ وَقَعَ عَنْ رِجْلَيْهِ، فَوَقَصَتْهُ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اغْسِلُوهُ بِمَاءٍ وَسِدْرٍ، وَكَفَّنُوهُ فِي ثَوْبَيْنِ، وَلَا تُحَنِّطُوهُ، وَلَا تُخَمِّرُوا رَأْسَهُ، فَإِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُلَبِّيًا»**^(٢).

(١) "فتح الباري: (٨ / ٥٥٣). (٢) رواه البخاري (١٢٦٥) ومواضع، ومسلم (١٢٠٦).

قوله: واقف بعرفة، يعني أنه كان يؤدي فريضة الحج، وقوله: فوقسته - وفي رواية: فأوقسته، وفي لفظ آخر: فأقصته، أو فأقصته - وكل ذلك بمعنى: كسرت عنقه، أي أنه سقط من فوق دابته فمات، فنسب الفعل إلى الدابة مجازاً، أو يحتمل أنه سقط من فوقها فوطئت بحافرها على عنقه فقضت عليه حقيقة.

فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يغسلوه بماء وسدر، وهو ورق شجر النبق، له رائحة طيبة، ولكن لا يستخدم كطيب، وأن يكفونه في ثوبين، ولا يطيبوه كما يطيب الماء الذي يغسل به الموتى، لأنه قد مات مثلبساً بالحج، والحاج لا ينظف، ونهاهم كذلك عن أن يخمروا رأسه، أي: عن تغطيته، لأنه محرم، وعلل ذلك بأنه يبعث يوم القيامة يلبي كما كان يفعل قبيل موته، أي أنه سوف يبعث على الصورة التي مات عليها.

قال النووي رحمه الله: "في هذه الروايات دلالة بينة لمذهب الشافعي وأحمد وإسحاق وموافقيهم: في أن المحرم إذا مات لا يجوز أن يلبس المخيط، ولا تخمر رأسه، ولا يمس طيباً، وقال مالك والأوزاعي وأبو حنيفة وغيرهم: يُفعل به ما يفعل بالحي، وهذا الحديث راد لقولهم"^(١).

ويؤخذ من الحديث: إثبات المعاد، وأن بعض الناس يحشرون على هيئة مخصوصة، والمحرم إذا مات فإنه يبقى في حقه حكم الإحرام، فلا يحنط، ولا يغطي رأسه، ولا يكفن في ثلاثة أثواب كغيره، وفيه: أن من مات في سبيل الله يبعث على الهيئة التي مات عليها، وهذا كما جاء في الخبر: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في قتلى أحد: «رَمَلُوهُمْ بِدِمَائِهِمْ، فَإِنَّهُ لَيْسَ كَلِمٌ يُكَلَّمُ فِي اللَّهِ إِلَّا يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَدْمَى، لَوْنُهُ لَوْنُ الدَّمِ، وَرِيحُهُ رِيحُ الْمِسْكِ»^(٢)، قال بعض أهل العلم: "فعمم الحكم

(١) شرح صحيح مسلم: (٨ / ١٢٧).

(٢) رواه النسائي (٢٠٠٢)، وأحمد (٢٣٦٥٨).

في الظاهر بناء على ظاهر السبب، فينبغي أن يعمم الحكم في كل محرم، وبين
المجاهد والمحرم جامع لأن كلا منهما في سبيل الله^(١).

الحديث الخامس

عن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه قال: اسْتَعْمَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا عَلَى صَدَقَاتِ بَنِي سُلَيْمٍ، يُدْعَى ابْنَ اللَّثِيئَةِ، فَلَمَّا جَاءَ حَاسِبَهُ، قَالَ: هَذَا مَالِكُمْ وَهَذَا هَدِيَّةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَهَلَّا جَلَسْتَ فِي بَيْتِ أَبِيكَ وَأُمِّكَ، حَتَّى تَأْتِيكَ هَدِيَّتُكَ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا» ثُمَّ خَطَبَنَا، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي اسْتَعْمِلُ الرَّجُلَ مِنْكُمْ عَلَى الْعَمَلِ مِمَّا وَلَّانِي اللَّهَ، فَيَأْتِي فَيَقُولُ: هَذَا مَالِكُمْ وَهَذَا هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ لِي، أَفَلَا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ حَتَّى تَأْتِيَهُ هَدِيَّتُهُ، وَاللَّهِ لَا يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا بغيرِ حَقِّهِ إِلَّا لَقِيَ اللَّهَ يَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَا عَرَفَنَ أَحَدًا مِنْكُمْ لَقِيَ اللَّهَ يَحْمِلُ بغيرًا لَهُ رِغَاءً، أَوْ بقرَةً لَهَا خُوَارٌ، أَوْ شاةً تَيْعَرُ» ثُمَّ رَفَعَ يَدَهُ حَتَّى رُئِيَ بَيَاضُ إِبْطِهِ، يَقُولُ: «اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتُ»^(٢).

في الحديث: أن النبي صلى الله عليه وسلم استعمل رجلاً لجمع الزكاة من بعض قبائل العرب، فلما رجع من عندهم أعطى النبي صلى الله عليه وسلم مالا على اعتبار أنه الصدقة التي جمعها، وقبض لنفسه بعض المال بزعم أنه أخذه منهم على سبيل الهدية، وليس من المال الذي كلف بجمعه، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم، وخطب في الناس ينهاهم عن مثل هذا، وأقسم بالله أنه ما من أحد يأخذ شيئاً من الصدقة بغير حق، إلا أتى يوم القيامة حاملاً ما أخذ وسرق منها على عنقه، فإن كان ما أخذه بغيراً من الجمال، فإنه يأتي به حاملاً إياه على عنقه، ويكون له

(١) انظر فتح الباري: (٣ / ١٣٧).

(٢) رواه البخاري (٦٩٧٩) ومواضع، ومسلم (١٨٣٢).

رغاء، وهو صوت البعير، وإن كانت بقرة جاء يحملها ولها خوار، وهو صوت البقر، وإن كانت شاة جاء بها تيعر، أي: تصيح، واليعار: صوت الغنم.

ويؤخذ من الحديث: أن الولاية والإمارة من الأمانات التي سوف يُسأل عنها الوالي والأمير، ولا ينبغي لمن تولى أمرًا أن يستغل هذا الأمر لتحقيق مصلحة خاصة له، لم يكن ليحققها إلا بتوليئه هذا المنصب، ووجوب محاسبة الولاة وأصحاب الأعمال العامة على ما يكسبونه من أموال. كما يؤخذ منه: إثبات البعث، وأن من الناس من يبعث على هيئة مخصوصة، وأن من الناس من يحشر حاملًا أوزاره بأعيانها، فهو يحمل المال الحرام الذي جمعه على كتفيه حقيقة، وقد جاء في بعض طرق هذا الحديث: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْهُ شَيْئًا إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى رَقَبَتِهِ، إِنْ كَانَ بَعِيرًا لَهُ رِغَاءٌ، أَوْ بَقْرَةً لَهَا خُورٌ، أَوْ شَاةً تَيْعَرُ».

الحديث السادس

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: اسْتَبَّ رَجُلَانِ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَرَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ، قَالَ الْمُسْلِمُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُحَمَّدًا عَلَى الْعَالَمِينَ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْعَالَمِينَ، فَرَفَعَ الْمُسْلِمُ يَدَهُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَلَطَمَ وَجْهَ الْيَهُودِيِّ، فَذَهَبَ الْيَهُودِيُّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ، وَأَمْرِ الْمُسْلِمِ، فَدَعَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُسْلِمَ، فَسَأَلَهُ عَنِ ذَلِكَ، فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَصْعَقُ مَعَهُمْ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا مُوسَى بَاطِشٌ جَانِبَ الْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ، فَأَفَاقَ قَبْلِي أَوْ كَانَ مِمَّنْ اسْتَنْتَى اللَّهَ»، وفي رواية: «فَلَا أَدْرِي أَحُوسِبَ بِصَعْقَتِهِ يَوْمَ الطُّورِ، أَوْ بُعِثَ قَبْلِي»^(١).

(١) رواه البخاري (٢٤١١) ومواضع، ومسلم (٢٣٧٣).

المفاضلة بين الأنبياء جائزة ومقررة، لقوله جل وعلا: **{تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ}** [البقرة: ٢٥٣]، **{وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ}** [الإسراء: ٥٥]، كما تقرر أيضاً أن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم هو خير ولد آدم أجمعين متضمناً ذلك الأنبياء عليهم السلام، ويكون النهي في هذا الحديث محمولاً على المفاضلة التي تقضي إلى انتقاص المفضول، أو المفاضلة التي تقضي إلى الخصومة والعصبية، وقيل: إنما نهى عن تفضيله على الأنبياء تواضعاً منه صلى الله عليه وسلم، وحتى لا يكون هناك نزاع في ذلك، فتكون مدخلاً للشيطان، والله أعلم.

ويؤخذ من الحديث: إثبات الصعقة التي تكون عند النفخة الأولى، كما في قوله تعالى: **{وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ}** [الزمر: ٦٨]، والصعق: هو غشي أو إغماء أو موت يلحق من سمع صوتاً شديداً أو رأى شيئاً مفرعاً، ولا يصعق من استثنى الله سبحانه، واختلف أهل العلم في تعيين هؤلاء الذين استثنوا، فقيل: هم الشهداء، وقيل: الملائكة، وقيل غير ذلك، وبالجملة يكون الصعق في حق الأحياء وقتذاك فيموتون، ويقع الصعق للموتى أيضاً بكيفية لا يعلمها إلا الله سبحانه، قال ابن كثير رحمه الله: "وينفرد الحي القيوم الذي كان أولاً، وهو الباقي آخرًا، بالديمومة والبقاء، ويقول: **{لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ}** [غافر: ١٦] ثلاث مرات. ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول: **{لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}**، أي: الذي هو واحد وقد قهر كل شيء، وحكم بالفناء على كل شيء، ثم يحيي أول من يحيي إسرافيل، ويأمره أن ينفخ في الصور أخرى" (١).

وفي الحديث أيضاً إثبات البعث، ولكن ثبت في الصحيح أن نبينا محمداً صلى

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: (٧ / ١١٦).

الله عليه وسلم هو أول من يبعث وتتشق عنه الأرض، كما في الحديث: «أَنَا سَيِّدُ
وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفِّعٍ»^(١)، وأما
تردده صلى الله عليه في تعيين الأولية في هذا الحديث هل هي له أم لموسى عليه
السلام فأجيب عنها بأنه "يحتمل أنه صلى الله عليه وسلم قاله قبل أن يعلم أنه أول
من تتشق عنه الأرض، إن كان هذا اللفظ على ظاهره، وأن نبينا صلى الله عليه
وسلم أول شخص تتشق عنه الأرض على الإطلاق، ويجوز أن يكون معناه أنه من
الزمرة الذين هم أول من تتشق عنهم الأرض، فيكون موسى عليه السلام من تلك
الزمرة"^(٢)، والله تعالى أعلم.

الحديث السابع

عن سهل بن سعد رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:
«يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ، كَقَرْصَةِ النَّقِيِّ، لَيْسَ فِيهَا عِلْمٌ
لِأَحَدٍ»^(٣)، وفي رواية: "لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لِأَحَدٍ".

الحشر هو حشد الناس جميعاً في موضع ما، وهو يلي البعث والنشور، والحديث
يبين صفة أرض المحشر، فهي أرض بيضاء عفراء، أي: بيضاء تميل إلى الحمرة
قليلاً، "ققرصة النقي": أي كالخبز - أو العجين - النقي الذي سلم دقيقه من الغش
والنخالة، وقوله: "ليس فيها علم - أو معلم - لأحد": قال القاضي عياض: "المراد
أنها ليس فيها علامة سكنى، ولا بناء، ولا أثر، ولا شيء من العلامات التي يهتدى
بها في الطرقات كالجبل والصخرة البارزة"^(٤)، قالوا: وفي هذا تعريض بأن أرض

(١) رواه مسلم (٢٢٧٨)، وأبو داود (٤٦٧٣)، وأحمد (١٠٩٧٢).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي: (١٥ / ١٣١).

(٣) رواه البخاري (٦٥٢١)، ومسلم (٢٧٩٠). (٤) فتح الباري: (١١ / ٣٧٥).

الدنيا ذهبت وزالت أملاك أهل الدنيا منها.

وفي الحديث: إثبات المعاد، وبيان عظم هوله، والدليل على عظمة قدرة الله جل وعلا، والإعلام بجزئيات يوم القيامة، ليكون السامع على بصيرة، فيخلص نفسه من هول ذلك اليوم، والله المستعان.

الحديث الثامن

عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنكُمْ مَحْشُورُونَ حُفَاةَ عُرَاةٍ غُرْلًا»، ثُمَّ قَرَأَ: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْهَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ} [الأنبياء: ١٠٤]، «وَأَوَّلُ مَنْ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ، وَإِنَّ أَنَا سَأَمِنْ أَصْحَابِي يُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشَّمَالِ، فَأَقُولُ أَصْحَابِي أَصْحَابِي، فَيَقُولُ: إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَيَّ أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ، فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: {وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [١١٨]»^(١).

هذا الحديث يبين مشهدًا من مشاهد الآخرة، حيث يجمع الناس عند الخروج من القبور بعد بعثتهم وإحيائهم من موتهم حفاة بلا خف ولا نعل، وعراة بلا ثياب، وغرلاً أي: غير مختونين، كما كانوا عندما خلقوا أول مرة، وذكر صلى الله عليه وسلم أن أول من يُكسى من الأنبياء يوم القيامة إبراهيم الخليل عليه السلام، ولا يلزم من تخصيصه عليه السلام بذلك أفضليته على نبينا صلى الله عليه وسلم، فقد يتميز المفضول بفضيلة دون الفاضل، والله عز وجل قد يخص أحدًا من الأنبياء أو غيرهم بشيء يتميز به عن غيره، ولا يوجب ذلك الفضل المطلق.

(١) رواه البخاري (٣٣٤٩) وموضع، ومسلم (٢٨٦٠).

وأما قوله صلى الله عليه وسلم: "أناساً من أصحابي" فلا يراد به السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، وإنما يراد به المفهوم الواسع للصحبة، الذي يشمل كل من وفد على النبي صلى الله عليه وسلم ولقيه ولو مرة واحدة، فقد وقعت الردة عقب وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، حين ارتد أقوام ممن بايعوه على الإسلام، وامتنع آخرون عن الزكاة، كما ادعى أناس النبوة وتبعهم خلق من أقوامهم، ثم افتترقت الفرق بعد ذلك فيما بينها، ووقعت الخصومات والنزاعات العقيدية والحربية بين المؤمنين، وأنا لله وإنا إليه راجعون.

ويستفاد من الحديث: إثبات البعث والحشر على الصفة التي ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم، وإخباره بأمر من الغيب تحققت بعد، وهي من دلائل نبوته وصدقه عليه الصلاة والسلام، وفيه فضائل بعض الأنبياء مثل إبراهيم وعيسى عليهما السلام.

الحديث التاسع

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُرْفَعُ لِكُلِّ غَائِرٍ لَوَاءٌ، فَقِيلَ: هَذِهِ غَدْرُهُ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ»^(١).

والغادر: هو الشخص الذي ينقض عهده، والغدر هنا بمعناه الواسع، كغدر الإمام بعهوده لرعيته التي تقلد أمرها ليصلحها ويعتني بمصالحها، وغدر الرعية بإمامها الذي عاهدته على السمع والطاعة، ثم خرجت عليه، وغدر كل ذي عهد بمن عاهده بعد أن وثق به، وقد سأل عظيم الروم أبا سفيان عن النبي صلى الله عليه وسلم: هل يغدر؟ فأجاب أبو سفيان: "لا، وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ لَا نَدْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيهَا"،

(١) رواه البخاري (٣١٨٨) ومواضع، ومسلم (١٧٣٥)، واللفظ له.

فقال هرقل بعد ذلك: "وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَغْدِرُ، فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، وَكَذَلِكَ الرَّسُولُ لَا تَغْدِرُ" (١).

وأما اللواء: فالمراد به ها هنا: علامة يميز بها الغادر يوم القيامة، وقيل إن العرب قديمًا كانوا يرفعون للوفاء راية بيضاء، وللغدر راية سوداء، ليلوموا الغادر ويذموه، فاقتضى الحديث وقوع مثل ذلك للغادر يوم المحشر ليشتهر بصفته في القيامة فيذمه أهل الموقف. وفي الحديث: إثبات البعث والحشر، وفيه ذم الغدر والتحذير منه.

الحديث العاشر

عن قتادة، حدثنا أنس بن مالك رضي الله عنه، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «أَلَيْسَ الَّذِي أَمْسَاهُ عَلَى الرَّجُلَيْنِ فِي الدُّنْيَا قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمَشِّيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» قَالَ قَتَادَةُ: بَلَى وَعِزَّةَ رَبِّنَا (٢).

قد جاء في الكتاب والسنة صور عديدة للكيفية التي يحشر بها المجرمون يوم القيامة، منها قول الله تعالى: {يَوْمَ يُدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً} [الطور: ١٣]، أي يدفعون دفعًا، وهذا الحديث كقول الله جل وعلا: {وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمِّيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا} [الإسراء: ٩٧].

وهذه الكيفية على حقيقتها وليست بحاجة إلى تأويل، وإلا لما تعجب الصحابة منها وسألوا عنها، قال الحافظ: "والحكمة في حشر الكافر على وجهه: أنه عوقب على عدم السجود لله في الدنيا بأن يسحب على وجهه في القيامة، إظهارًا لهوانه بحيث صار وجهه" (٣)، وفي الحديث: إثبات البعث والحشر عامة، وعلى الكيفية

(١) رواه البخاري (٧) ومواضع، ومسلم (١٧٧٣).

(٢) رواه البخاري (٤٧٦٠)، ومسلم (٢٨٠٦).

(٣) فتح الباري: (١١ / ٣٨٢).

الخاصة التي عينها الوحي بالنسبة للكافر، نسأل الله العافية.

الحديث الحادي عشر

- عن سليم بن عامر، أن المقداد بن الأسود رضي الله عنه حدثهم، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ، حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمَقْدَارِ مِيلٍ» - قَالَ سُلَيْمُ بْنُ عَامِرٍ: فَوَاللَّهِ مَا أُدْرِي مَا يَعْنِي بِالْمِيلِ؟ أَمْسَافَةٌ الْأَرْضِ، أَمْ الْمِيلَ الَّذِي تُكْتَحَلُ بِهِ الْعَيْنُ - قَالَ: «فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَامًا» قَالَ: وَأَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِإِذِهِ إِلَى فِيهِ^(١).

الميل: اسم مشترك بين مسافة في الأرض، وهي وحدة معروفة قديماً وحديثاً، والميل: بمعنى المرود الذي تكحل به العين، وقد أشكل المراد على الراوي سليم بن عامر فأقر بهذا في روايته، وبخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث عن اقتراب الشمس من رؤوس الخلائق في المحشر، حتى أن العرق سيغمر الناس على قدر أعمالهم في كثرة العرق وقلته، فمنهم من يكون عرقه إلى كعبيه أعلى القدم، ومنهم من يكون عرقه إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، وهو الموضع الذي يعقد عليه الإزار من الخاصرة، أو طرفا الوركين، ومنهم من يلجمه العرق إلجَامًا، أي: يصل إلى فمه، فيكون له بمنزلة اللجام من الحيوانات، نسأل الله العافية.

ففي هذا الموقف تتراكم الأهوال، حيث تدنو الشمس جداً، ومع الزحام يشتد أمر العرق على البعض ويخفف على البعض بحسب أعمالهم، وقيل: إن هذا خاص بالكافرين والعصاة، أما المؤمنون فإن الله يخفف عنهم ويكون الموقف عليهم

(١) رواه مسلم (٢٨٦٤)، والترمذي (٢٤٢١)، وأحمد (٢٣٨١٣).

كموقفهم في صلاتهم، والله تعالى أعلم.

وفي الحديث: إثبات البعث والحشر، وبيان بعض أهوال القيامة والترهيب منها، نسأل الله السداد.

الحديث الثاني عشر

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «سَبَعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبْتَهُ امْرَأَةٌ دَأْتُ مِنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ، أَخْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالَهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»^(١).

وهذا الحديث يخفف من وقع الحديث السابق، ففيه استثناء لأصناف من الناس يدينهم الله في ظل كرامته، ويقبهم حر ذلك اليوم، نسأل الله أن يجعلنا منهم، والمراد بالظل ها هنا: ظل العرش كما جاء مصرحاً به في بعض طرق الحديث، ومن العلماء من تأول الظل بكنف الله تعالى ورحمته، ولا منافاة بينهما، فالظل على حقيقته دال على عناية الله جل وعلا بعباده هؤلاء، وإدخالهم في كنفه ورحمته، والله الموفق.

والأصناف السبعة هم: (١) الإمام العادل، أي الحاكم العادل في رعيته، الذي يحافظ على حقوقهم، ويرعى مصالحهم، ويفرق بهم ويعطي كل ذي حق حقه دون محاباة أو جور، فيقيم مصالح الدين والدنيا، (٢) وشاب نشأ مجتهداً في عبادة ربه، ملتزماً بطاعته في أمره ونهيه، وخص الشاب بالذكر، لأن العبادة في الشباب أشد وأشق وأصعب، مع كثرة الدواعي للمعصية وغلبة الشهوات، (٣) ورجل معلق قلبه

(١) رواه البخاري (٦٦٠) وموضح، ومسلم (١٠٣١).

في المساجد، فهو شديد الحرص على المكث فيها، والتردد عليها، ملازمًا للجماعة والفرائض ومنتظرًا للصلاة بعد الصلاة، (٤) ورجلان أحب كل منهما الآخر في ذات الله تعالى وفي سبيل مرضاته وطاعته، لا لغرض دنيوي، واجتمعا على ذلك، واستمرا على محبتهما هذه لأجله سبحانه، (٥) ورجل طلبته للفاحشة امرأة حسناء ذات حسب ونسب، ومال وجاه، ومركز مرموق، فقال: إني أخاف الله، سواء قال ذلك بلسانه زجرًا لها عن الفاحشة، أو قالها بقلبه ويصدقه فعله، بأن تمنعه مخافة الله عن اقتراف ما يغضبه، وخص ذات المنصب والجمال لكثرة الرغبة فيها، وهذه صفة الصديقين، (٦) ورجل تصدق صدقة التطوع، فبالغ في إخفاء صدقته على الناس، وسترها عن كل شيء حتى عن نفسه، فلا تعلم شماله ما تنفق يمينه، وإنما ذكر اليمين والشمال للمبالغة في الإخفاء والإسرار بالصدقة، وهذا هو الأفضل في الصدقة والأبعد من الرياء، وإن كان يشرع الجهر بالصدقة والزكاة إن سلمت عن الرياء، وقصد بها حث الغير على الإنفاق بالاقتداء به، ولإظهار شعائر الإسلام، (٧) ورجل ذكر الله بلسانه خاليًا، أو تذكر بقلبه عظمة الله تعالى ولقاءه، ووقوفه بين يديه، ومحاسبته على أعماله، حال كونه خاليًا منفردًا عن الناس، وهذا أبعد عن الرياء، فسالت دموعه خوفًا من الله تعالى.

وإنما نال هؤلاء السبعة ذلك النعيم بالإخلاص لله تعالى ومخالفة الهوى، كل حسب موقعه وما يعرض له من الفتن والشهوات، والعدد سبعة ليس على سبيل الحصر، فقد وردت بعض الأخبار تحمل الفضل ذاته لأصناف أخرى من الناس، كمن أنظر معسرًا أو وضع عنه، ومن أعان غازيًا في سبيل الله، والتاجر الصدوق، وغير ذلك، وقد تتبع الحافظ ابن حجر أصناف المؤمنين ممن حازوا هذا الفضل فعَدَّ أصنافًا كثيرًا ذكر بعضها في شرحه للبخاري، والبعض الآخر في أماليه، ثم جاء السيوطي بعده وعد أصنافًا آخر، فدل هذا على أن العدد المذكور في هذا الحديث لا يفيد الحصر، كما نبه الحافظ رحمه الله على أمر آخر، فقال: "ذكر الرجال في

هذا الحديث لا مفهوم له، بل يشترك النساء معهم فيما ذكر، إلا إن كان المراد بالإمام العادل: الإمامة العظمى، وإلا فيمكن دخول المرأة حيث تكون ذات عيال فتعدل فيهم، وتخرج خصلة ملازمة المسجد لأن صلاة المرأة في بيتها أفضل من المسجد، وما عدا ذلك فالمشاركة حاصلة لهن^(١)، والله الموفق.

ويستفاد من الحديث: إثبات البعث والحشر، وفضل الأصناف السبعة المذكورة، والحث على الاشتغال بطاعة الله جل في علاه، لأنها أسباب لنوال رضوانه في الآخرة، وتهوين المحشر على عباده المخلصين، نسأل الله السداد.

الحديث الثالث عشر

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «نَحْنُ الْأَخْرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

هذا الحديث يبين إحدى فضائل هذه الأمة على الأمم السابقة، فهم الآخرون في الزمان، لأن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء والرسل، ولا نبي بعده، ولكنهم السابقون في الفضل والفضيلة يوم القيامة على الأمم السالفة من أهل الكتاب، بحيث تكون سابقة لهم في الحساب والقضاء ودخول الجنة، وقد جاء هذا المعنى مفسراً في بعض طرق الحديث عند مسلم: «وَنَحْنُ أَوْلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ»، وفي حديث حذيفة رضي الله عنه مرفوعاً: «نَحْنُ الْأَخْرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَالْأَوْلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الْمَقْضِيُّ لَهُمْ قَبْلَ الْخَلَائِقِ»^(٣)، فله الحمد والمنة.

ويستفاد من الحديث: إثبات المعاد والحساب والجنة، مع إثبات أفضلية هذه الأمة

(١) فتح الباري: (٢ / ١٤٧).

(٢) رواه البخاري (٢٣٨) ومواضع، ومسلم (٨٥٥).

(٣) رواه مسلم (٨٥٦)، والنسائي (١٣٦٨)، والبيهقي في الشعب (٢٧٠٦).

على من سبقها، والله المستعان.

الحديث الرابع عشر

عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: قال صلى الله عليه وسلم: «لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسِبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا هَلَكَ» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧٨﴾ فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا} [الانشقاق: ٧، ٨] فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا ذَلِكَ الْعَرَضُ، وَلَيْسَ أَحَدٌ يُنَاقِشُ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا عُذِّبَ»^(١).

أشكل على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قول النبي صلى الله عليه وسلم: "ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك"، مع ما قرأته وحفظته من كلام جل وعلا: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧٨﴾ فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا} [الانشقاق: ٧، ٨]، ورأت بينهما شيئاً من التعارض، فرجعت إلى النبي صلى الله عليه وسلم تسألُهُ باعتبارِه هو المرجع في تفسير ما يشكل على الناس في دينهم، فأوضح لها المعصوم عليه الصلاة والسلام أن الحساب يوم القيامة نوعان: حساب يسير وهو العرض، أي: إبراز الأعمال وإظهارها دون مناقشة أو استقصاء، وهذا خاص بأهل الرحمة والسعادة وحدهم، فيعرفهم الله تعالى بذنوبهم، ثم يتجاوز عنه، ليدركوا منة الله عليهم في سترها عليهم في الدنيا، وفي عفوهِ عنها في الآخرة، والثاني: حساب مناقشة، وهو عسير شديد، ولا يخلو من العذاب، لأن العبد يناقش فيه على أخطائه بشدة، وترصد فيه جميع ذنوبه كبيرها وصغيرها، نسأل الله السلامة والعافية.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في أول الحديث: "هلك"، وفي آخره: "عُذِّبَ"، وذلك لأن العذاب "له معنيان: أحدهما: أن نفس مناقشة الحساب وعرض الذنوب

(١) رواه البخاري (٦٥٣٧) ومواضع، ومسلم (٢٥٧٢).

والتوقيف على قبيح ما سلف والتوبيخ تعذيب، والثاني: أنه يفضي إلى استحقاق العذاب، إذ لا حسنة للعبد إلا من عند الله لإقداره عليها، وتفضله عليه بها، وهدايته لها^(١)، أي أن المعنى الأول مفضٍ إلى الآخر، نسأل الله السلامة والعافية.

ويستفاد من الحديث: إثبات الحساب والعرض والعذاب يوم القيامة، وتفاوت الناس في الحساب، وأن من حق طالب العلم أن يسأل فيما أشكل عليه، وأن يراجع.

الحديث الخامس عشر

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُتِيَ بِالْحِمِّ فَرَفَعَ إِلَيْهِ الذَّرَاعُ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ فَنَهَشَ مِنْهَا نَهْشَةً، ثُمَّ قَالَ: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَلِكَ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِيَ وَيَنْفِذُهُمُ الْبَصْرَ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ، فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْعَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيفُونَ وَلَا يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ النَّاسُ: أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ، أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: عَلَيْكُمْ بِأَدَمَ، فَيَأْتُونَ أَدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ أَدَمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، أَذْهَبُوا إِلَيَّ غَيْرِي، أَذْهَبُوا إِلَيَّ نُوحٍ.

فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ

(١) فتح الباري: (١١ / ٤٠٢).

كَأَنْتَ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَيَّ غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَيَّ إِبْرَاهِيمَ. فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ كَذَبْتُ ثَلَاثَ كَذِبَاتٍ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَيَّ غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَيَّ مُوسَى.

فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، فَضَلَّكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُوْمَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَيَّ غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَيَّ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ.

فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَكَلِمَتُهُ أَلْفَاها إِلَيَّ مَرْيَمَ وَرُوحَ مِنْهُ، وَكَلِمَتِ النَّاسِ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ عِيسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ قَطُّ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَذْكَرْ ذَنْبًا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَيَّ غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَيَّ مُحَمَّدٍ.

فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتِمُ الْأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقْعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَيَّ أَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ اذْهَبْ رَأْسَكَ سَلِّ تَعَطُّهُ، وَاشْفَعْ تَشْفَعْ فَارْزُقْ رَأْسِي، فَأَقُولُ: أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ادْخُلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِي مَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنَ مَصَارِعِ الْجَنَّةِ، كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَحَمِيرَ»^(١).

(١) رواه البخاري (٣٣٤٠) ومواضع، ومسلم (٢٢٧٨).

أو قال: "أَوْ كَمَا بَيَّنَّ مَكَّةَ وَبُصَّرَى".

وقوله: نهس نهسة، أو نهش نهشة: أي قضم قضمة بأطراف أسنانه صلى الله عليه وسلم، والصعيد: الأرض المنبسطة الواسعة، والسيد: هو الذي يفوق قومه ويفزع إليه في الشدائد، وخص يوم القيامة بالذكر لارتفاع سؤده وتسلیم جميع الخلق له، ولكون آدم عليه السلام وجميع ولده تحت لوائه، وهذا لا ينافي السيادة في الدنيا، فهو صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم في الدنيا والآخرة.

والموقف المذكور يكون في أول الحشر قبل إلقاء الكتب وبدء الحساب، وهو موقف عصيب يشد في الزحام وتدنو فيه الشمس من الرؤوس، ويعظم الغم والكرب، ويطول الأمر كثيرًا حتى لا يجد الناس بدءًا سوى الاستشفاع بالأنبياء لمنزلتهم من الله تعالى، فيأتون آدم، ثم نوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، عليهم جميعًا صلوات الله وسلامه، وكل منهم يذكر ما يجعله يحجم عن التقدم للشفاة، وإن كان ما ذكره ليس بذنب يلاحقهم، فآدم عليه السلام غفر الله له ما كان من أكله من الشجرة، {فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [البقرة: ٣٧]، {ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى} [طه: ١٢٢]، والكذبات الثلاث التي ذكرها إبراهيم عليه السلام كانت في الله، ومن أجل دينه، كقوله حين دعاه قومه إلى معابدهم وأنديتهم التي يشركون فيها بالله جل وعلا: {إِنِّي سَقِيمٌ} [الصافات: ٨٩]، ونحو ذلك.

والمقصود: أن الموقف يكون عظيمًا للدرجة التي تجعل صفوة رسل الله يحجمون عن التقدم للشفاة العامة، فينهض لها خير أنبيائه ورسله، وإمام أهل الموقف، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهذه هي الشفاة العامة العظمى لأهل المحشر جميعًا أن يبدأ الحساب ليخسوا مما هم فيه من الكرب والهول العظيم.

وأما قوله: "ثم يفتح الله علي من محامده وحسن الثناء عليه....." فمعناه: أن المولى عز وجل يلهمه ويلقي في نفسه المحامد التي يجبها من عباده، فتكون قربة

إليه سبحانه، فيقول له: "ارفع رأسك، وسل تعطه، واشفع تشفع"، وهذا قبول لشفاعته صلى الله عليه وسلم.

وفي هذا الحديث: إثبات المعاد، وأيضًا إثبات كرامة النبي صلى الله عليه وسلم على ربه سبحانه، وإثبات الشفاعة العامة له صلى الله عليه وسلم، وفيه أيضًا: شدة هول الموقف يوم القيامة، وإثبات العرش الذي استوى عليه الرحمن استواء يليق بجلاله، وهو أعظم المخلوقات وأكبرها.

الحديث السادس عشر

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يَجِيءُ نُوحٌ وَأُمَّتُهُ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى، هَلْ بَلَغْتَ؟ فَيَقُولُ نَعَمْ أَيُّ رَبِّ، فَيَقُولُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَغْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ لَا مَا جَاءَنَا مِنْ نَبِيِّ، فَيَقُولُ لِنُوحٍ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأُمَّتُهُ، فَتَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ، وَهُوَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وَالْوَسْطُ الْعَدْلُ»^(١).

وفي بعض طرقه: «يَجِيءُ النَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَيَجِيءُ النَّبِيُّ وَمَعَهُ الثَّلَاثَةُ، وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، وَأَقْلُ، فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَغْتَ قَوْمَكَ؟....» الحديث، كذا على عموم الأنبياء والرسل دون تعيين نوح عليه السلام.

في هذا الحديث كرامة لأمة محمد عليه الصلاة والسلام إذ جعلها الله شاهدة على الأمم التي كذبت رسلها في الدنيا، وتريد أن تجدد هذا التكذيب في الآخرة لتتجو من العذاب، فإن قال قائل: كيف تشهد هذه الأمة على من سبقها من الأمم وهي لم تشهد تكذيبهم؟ فيجيب: بأن هذه شهادة مبناها على صدق الوحي الذي أوحاه الله

(١) رواه البخاري (٣٣٣٩) وموضع، والترمذي (٢٩٦١)، وابن ماجه (٤٢٨٤)، وأحمد (١١٢٨٣).

تعالى في كتابه الكريم، فأمن به النبي صلى الله عليه وسلم وأمته، وبه تشهد، قال أبو جعفر الطبري رحمه الله في تفسير قوله تعالى: **لَوْ كَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ** {البقرة: ١٤٣}: "وكذلك جعلناكم أمة وسطاً: عدولاً لتكونوا شهداء لأنبيائي ورسلي على أممها بالبلاغ، أنها قد بلغت ما أمرت ببلاغه من رسالاتي إلى أممها، ويكون رسولي محمد صلى الله عليه وسلم شهيداً عليكم، بإيمانكم به، وبما جاءكم به من عندي"^(١).

وفي الحديث: إثبات المعاد، وإثبات النبوات التي سبقت سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، مع إثبات بعض كرامات هذه الأمة، والله الموفق.

الحديث السابع عشر

عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا سَيَكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تَلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَانْفُؤا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»^(٢). وفي بعض طرقه: «فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فِكَلِمَةً طَيِّبَةً».

هو لفظ مختصر من حديث طويل لعدي بن حاتم رضي الله عنه حين قدم على النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره ببعض الأمور الغيبية التي ستقع مستقبلاً، ومنها: ظهور هذا الدين وانتشاره في جزيرة العرب وما حولها، وخروج المسلمين لفتح بلاد الفرس والروم واغتمامهم كنوز هاتين الدولتين، حتى أتى على أمر غيبي سيقع يوم القيامة، وهو: أن العبد سيقف بين يدي الله جل وعلا فيكلمه بلا واسطة، ودون

(١) تفسير الطبري "جامع البيان": (٣ / ١٤٥).

(٢) رواه البخاري (٦٥٣٩)، ومواضع، ومسلم (١٠١٦).

ودون الحاجة إلى ترجمان يترجم من لغة لأخرى، حتى تقام الحجة عليه، ثم ينظر الرجل عن يمينه فلا يرى إلا جهنم، وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم، لارتكابه السيئات، ولا يجد الخلاص منها ليس إلا بالمرور عليها، ولكي يتمكن من تجاوزها لا بد له من اتخاذ حاجز له منها، وهذا الحاجز قد يكون من أبسط الأمور: الصدقة والكلمة والطيبة، والله المستعان.

ويستفاد من الحديث: إثبات المعاد والحساب، وقرب النار من أهل الموقف، أعاننا الله وإياكم، والإقبال على الطاعات والاستكثار منها، وألا يحتقر من المعروف أو الصدقة شيئاً ولو كان قليلاً، فإنه ينتفع به المتصدق والمتصدق عليه، وفيه أيضاً معجزة ظاهرة من معجزاته صلى الله عليه وسلم بإخباره عن أمور غيبية وقع بعضها بالفعل، كما أن في الحديث: إثبات صفة الكلام لله تعالى، على ما يليق بجلال الله وعظمته، فالله سبحانه يتكلم كما شاء بما شاء، لا يماثل كلام المخلوقين، والأدلة على ذلك من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة كثيرة، والله المستعان.

الحديث الثامن عشر

عن نعيم بن عبد الله المجرم، قال: رَقِيتُ مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ عَلَى ظَهْرِ الْمَسْجِدِ، فَنَوَّضًا، فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ «إِنَّ أُمَّتِي يُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ فَلْيَفْعَلْ»^(١).

الغرة: بياض في الجبهة، والمراد بها هنا: النور الكائن في وجوه أمة محمد صلى الله عليه وسلم، والتحجيل: بياض في الساق، والمراد به هنا أيضاً النور، فإن الوضوء يترك أثراً في الوجه والساق واليدين يكون بياضاً ونوراً يوم القيامة، تختص

(١) رواه البخاري (١٣٦)، ومسلم (٢٤٦).

به هذه الأمة من بين الأمم.

وهذا الحديث من أجمل فضائل الوضوء، وفيه كرامة لأهل الطهارة والصلاة، حيث يظهر على وجوههم أثر الوضوء في الآخرة، ويكون علامة مميزة يعرفهم بها المصطفى صلى الله عليه وسلم من بين جميع الأمم، وأما قوله في آخر الحديث: "فمن استطاع منكم أن يطيل غرته"، فقد اقتصر على الغرة لدالاتها على التحجيل دون الحاجة لإعادة ذكره، و"لأن محل الغرة أشرف أعضاء الوضوء، وأول ما يقع عليه النظر من الإنسان"^(١)، والله تعالى أعلم.

وقد أشكل هذا الحديث على بعض أهل العلم، إذ أن الوضوء لم تختص به هذه الأمة وحدها، وقد عرفته الأمم من قبل، وقد جاء في قصة إبراهيم عليه السلام حين قدم مع زوجه سارة على أحد الجبابرة: "فَقَامَتْ تَوَضُّأً وَتُصَلِّي" ^(٢)، فدل هذا على أن الوضوء كان مشروعاً في الأمم السابقة، ولم تختص به أمة محمد صلى الله عليه وسلم وحدها لتعرف به من بين جميع الأمم!

والجواب: أن الذي اختصت به هذه الأمة اختصت صفة الوضوء المتضمنة الغرة والتحجيل، لا أصل الوضوء، فكما أن صلاة هذه الأمة لا تشابه صلاة من قبلها، ولا صيامها يطابق صيام من قبلها، فكذلك الوضوء، ولهذا جاء في صحيح مسلم: «تَعَمَّ لَكُمْ سَيْمًا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ مِنَ الْأُمَمِ تَرِدُونَ عَلَيَّ غُرًّا، مُحَجَّلِينَ مِنْ أُنْثَرِ الْوُضُوءِ» ^(٣).

وفي الحديث: إثبات المعاد، وإظهار بعض خصوصية هذه الأمة عن سواها، وفضل الوضوء والطهارة، والله الموفق.

(١) فتح الباري: (١ / ٢٣٦).

(٢) رواه البخاري (٢٢١٧) ومواضع، ومسلم (٢٣٧١).

(٣) رواه مسلم (٢٤٧).

الحديث التاسع عشر

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ: رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ، فَأَتِيَ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتَشْهَدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأَتِيَ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأَتِيَ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُفَقَّ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌّ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»^(١).

الإخلاص هو شرط قبول الأعمال، قال تعالى: **﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءً﴾** [البينة: ٥]، فمن أقدم على عمل شرعي لم يرد به وجه الله تعالى يُردُّ عمله إليه، ويكفيه ما حصل عليه من ثناء الناس الذين قصدهم بعمله، ثم يجازى على شركه فيه، وقد سمي النبي صلى الله عليه وسلم الرياء شركاً أصغر، لأنه ذريعة إلى الشرك الأكبر، ووسيلة للوقوع فيه.

وقول كل واحد منهم: "قاتلت فيك" - "قرأت فيك القرآن" - "أنفقت فيها لك" هو من قبيل التمسك بالكذب في الآخرة، كما هو الحال في الدنيا، بغرض الفرار من العذاب، وذلك كما قال الله تعالى في المنافقين: **﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾** [المجادلة: ١٨].

(١) رواه مسلم (١٩٠٥)، والنسائي (٣١٣٧)، والترمذي (٢٣٨٢)، وأحمد (٨٢٧٧).

وهذا الحديث جمع بين ثلاثة أصناف من المرئيين: المجاهد، والقارئ أو العالم، والمنفق، ويشترك ثلاثتهم في كون أعمالهم متعدية إلى غيرهم، وكون ثلاثتها من أجل الأعمال التي تكسب ثناء الناس، فمن عملها بإخلاص لم يضره ثناء الناس عليه، بل كانت شهادة له منهم، والنبي صلى الله عليه وسلم قال: «أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ»^(١)، أما من عملها من أجل الحصول على هذا الثناء فقد نال مراده في الدنيا، وليس له في الآخرة إلا النار، والعياذ بالله تعالى.

وفي الحديث: إثبات المعاد والحساب، وشم الرياء والتحذير منه، وتشديد العقوبة عليه، وامتهان وإذلال المرئيين على رؤوس الأشهاد، نسأل الله العافية.

الحديث العشرون

عن عبد الله بن أبي قتادة الأنصاري، أَنَّ أَبَا قَتَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، طَلَبَ غَرِيمًا لَهُ، فَتَوَارَى عَنْهُ، ثُمَّ وَجَدَهُ، فَقَالَ: إِنِّي مُعَسِّرٌ، فَقَالَ: اللَّهُ؟ قَالَ: اللَّهُ؟ قَالَ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنْحِيَهُ اللَّهُ مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَلْيُنْفَسْ عَنِ مُعَسِّرٍ، أَوْ يَضَعْ عَنْهُ»، وفي لفظ آخر: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَأْمَنَ مِنْ غَمِّ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلْيَنْظُرْ مُعَسِّرًا أَوْ لِيَضَعْ عَنْهُ»^(٢).

الغريم هو الشخص المدين لغيره، وقد كان لأبي قتادة رضي الله عنه دين على ذلك الرجل، فجعل يتوارى منه، فلما علم أبو قتادة بحاله، واستحلفه ليتيقن من عسره، ذكر له هذا الحديث وأنظره أو وضع عنه، والكرب: هو الشدة والفاقة، وكُرب يوم القيامة: شدائدها وأهوالها، وأما قوله صلى الله عليه وسلم: "فلينفس عن معسر"، أي: يمد ويؤخر المطالبة بالدين لمن لم يستطع الوفاء به في وقت حلوله، وقوله: "أو

(١) رواه البخاري (١٣٦٧)، مسلم (٩٤٩).

(٢) رواه مسلم (١٥٦٣)، واللفظ الآخر عند الطبراني (٣٢٧٧).

يضع عنه"، أي: يسقط بعض الدين عنه أو كله.

وفي الحديث: إثبات المعاد وأهوال القيامة، وبيان بعض طرق الخلاص من أهواله، أو تخفيفها، والحث على إنظار المعسر أو وضع الدين عنه ابتغاء وجه الله تعالى، والجزاء من جنس العمل.

الحديث الحادي والعشرون

عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، لَا يَنْزُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالْأَسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ»، وَقَالَ: «النَّايِحَةُ إِذَا لَمْ تَتَّبَقْ قَبْلَ مَوْتِهَا، تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطْرَانٍ، وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ»^(١).

قوله صلى الله عليه وسلم: "أربع"، أي: أربع خصال، بحذف المعدود لدلالة الكلام عليه، "من أمر الجاهلية" أي: كانت شائعة في أهل الجاهلية، ولا يزال يتمسك بها بعض أهل الإسلام، أو كثير منهم، والنبى صلى الله عليه وسلم يذكرها ليحذر منها.

فأما الفخر في الأحساب: يعني الافتخار بمناقب ومآثر الآباء والأجداد، على سبيل التكبر والتعظيم واحتقار الغير، وأما الطعن في الأنساب فيقصد به: إدخال العيب في أنساب الناس، كالتعبير بالنسب، أو نفي نسب الرجل إلى أبيه، وهذا باب فتنة عريض، ورمي لأعراض الناس حيهم وميتهم.

وأما الاستسقاء بالنجوم فيقصد به: الدعاء وطلب السقيا بنزول المطر، باعتقاد أن النجوم سبب في ذلك، كما كانوا يقولون في الجاهلية: مطرنا بنوء كذا، والاعتقاد بأنها المؤثرة في نزول المطر حقيقة كفر والعباد بالله، وأما النياحة: فهي البكاء على

(١) رواه مسلم (٩٣٤)، وابن ماجة (١٥٨١)، وأحمد (٢٢٩٠٣).

الميت بصياح ووعويل وجزع، وعد شمائل الميت ومحاسنه، وإبراز التحسر لفقده، والتسخط على القضاء.

ثم ذكر صلى الله عليه وسلم عقوبة النائحة في الآخرة: أنها توقف أمام أهل المحشر لتفضح أمامهم، وعليها سربال - أي قميص - من القطران، وهو النحاس المذاب، أو هو طلاء يطلّى به الجمل الأجرّب، فيحرق الجرب، وقد تبلغ حرارته الجوف، عليها أيضاً درع من جرب، والدرع نوع من قمصان النساء، فيكون عليها قميص آخر من جرب، والمعنى: أن كل جلدها يكون جرباً بمنزلة الدرع، بحيث يغطي جلدها تغطية الدرع ويلتصق بها، جزاء على نياحتها في الدنيا.

وهذا العذاب يكون على النياحة والتعديد، لما فيهما من إظهار الاعتراض على قدر الله، أما البكاء الخالي من النواح والوعويل والجزع على سبيل الحزن والرحمة على الميت، فلا شيء فيه بإذن الله.

وفي الحديث: إثبات المعاد والحساب، وأن بعض الناس يحشرون على هيئة مخصوصة بحسب أعمالهم، وبعض الأعمال يجازى عليها العبد أثناء الموقف والحشر علانية على رؤوس الأشهاد، والتحذير من الأعمال المذكورة، لصيانة أعراض الناس، والكف عن حرمتهم، وعن التسخط من القدر، والله المستعان.

الحديث الثاني والعشرون

عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أَفْرُؤُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، أَفْرُؤُوا الزُّهْرَؤَيْنِ الْبَقْرَةَ، وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا عَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَّابَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ، تُحَاجَّجَانِ عَنْ أَصْحَابِيهِمَا، أَفْرُؤُوا سُورَةَ الْبَقْرَةَ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكُهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبُطْلَةُ»^(١).

(١) رواه مسلم (٨٠٤)، وأحمد (٢٢١٤٦).

القرآن هو كلام الله عز وجل، المنزل على رسوله محمد عليه الصلاة والسلام، وهو دستور هذه الأمة الذي يحتوي على مبادئ تشريعها، ويرشد المؤمن إلى طريق الهداية في الدنيا، وسبيل النجاة في الآخرة، فتلاوته خير للمؤمن، وتدبره خير، وحفظه خير، والعمل بما فيه خير، ومحصلة ذلك كله أن القرآن يأتي يوم القيامة ليشفع لأهله الذين واطبوا على حفظه وتلاوته وتدبره والعمل بما فيه في الدنيا، نسأل الله التوفيق والسداد.

يحث النبي صلى الله عليه وسلم أمته على الإقبال على تلاوة القرآن الكريم وتدبره وحفظه، مستعملاً الأمر "اقرأوا"، ليشمل القرآن كله، ثم أعاد الأمر مع سور مخصوصة لها فضائل مخصوصة، ذكر منها البقرة وآل عمران، وسماهما "الزهاوين" أي: المنيرتين، وأكد أن هاتين السورتين تأتيان يوم القيامة على ثلاث صفات: الأولى: كأنهما غمامتان، أي: سحابتان، تُظِلُّان صاحبهما عن حر الموقف، والثانية: كأنهما غيايتان، وهي أعم من السابقة، فالغياية: كل ما أظل الإنسان فوق رأسه من سحابة وغيرها، والثالثة: كأنهما فرقان، أي: طائفتان وجماعتان، من طير صواف وهي جماعة الطير الباسطة أجنحتها متصلاً بعضها ببعض، والمراد أنهما يقيان قارئهما من حر الموقف، وكرب يوم القيامة، وتدافعان الجحيم والزبانية، أو تجادلان عنه بالشفاعة، وهذا يدل على قدرة الله تعالى على تحويل الأعراض إلى أجسام، فنواب القرآن الكريم يتحول إلى غمام أو فرق من طير تظل قارئ القرآن يوم القيامة، قال ابن تيمية رحمه الله: "فسروا هذا الحديث: بأن المراد به مجيء ثواب البقرة وآل عمران، كما ذكر مثل ذلك من مجيء الأعمال في القبر وفي القيامة، والمراد منه ثواب الأعمال"^(١).

(١) شرح حديث النزول: (١ / ٥٦).

ثم عاد مرة وكرر الأمر للمرة الثالثة وخص سورة البقرة وحدة لأن لها مزيد فضل على الأخرى، بأن أخذها - أي المواظبة على تلاوتها وتدبرها - بركة، أي: زيادة ونماء في الخير، وتركها حسرة أي: ندم وتأسف على ما تفويت ثوابها وفضلها، ولا يفدر عليها البطلة، وهم السحرة، فهي حصن لقارئها وحافظها من السحر ونحوه، والله المستعان.

ويؤخذ من الحديث: إثبات المعاد، وشفاعة القرآن لأهله، وفيه أيضاً: الحث على تلاوة القرآن وتدبره، وتخصيص بعض سورته بالفضل، والله الموفق.

الحديث الثالث والعشرون

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بَيَّنَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهُرِنَا إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا، فَقُلْنَا: مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «أُنزِلَتْ عَلَيَّ أَنْفًا سُوْرَةٌ» فَقَرَأَ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوْتِرَ ﴿٣٠﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٣١﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ} [الكوثر: ١ - ٣]، ثُمَّ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الْكُوْتِرُ؟» فَقُلْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، آتِيئُهُ عَدَدُ النُّجُومِ، فَيُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ، فَأَقُولُ: رَبِّ، إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي فَيَقُولُ: مَا تَدْرِي مَا أَحَدَنْتَ بَعْدَكَ»^(١).

"بينا" بمعنى بينما، و"أغفى إغفاءة" أي: نام نومة خفيفة، والشانئ: هو المبغض، والأبتر: في الأصل هو المنقطع العقب، أي الذي لا ولد له، والمراد في الآية: المنقطع عن كل خير.

والحديث يصف الحوض الذي اختص به النبي صلى الله عليه يوم الحشر، وهو نهر كبير جداً، طوله وعرضه مسيرة شهر، وماؤه أشد بياضاً من اللبن، ومذاقه

(١) رواه مسلم (٤٠٠)، والنسائي (٩٠٤)، وأبو داود (٤٧٤٧)، وأحمد (١١٩٩٦).

أحلى من العسل، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه التي يُعترف بها كعدد نجوم السماء ولمعانها، وقيل إنه سمي بالكوثر لكثرة مائه وأنيته، وعظم بركته وخيره وقدره، ولا يشرب منه إلا أهل السعادة من هذه الأمة، نسأل الله العلي القدير أن يجعلنا منهم.

وقوله: "فيختلج العبد منهم"، أي: يُنتزع ويُقطع من بين الواردين على الحوض، فيظهر هنا حرص النبي صلى الله عليه وسلم على أمته، فيقول: "رب، إنه من أمتي"، فيجاب: ما تدري ما أحدثت بعدك"، أي: إنك لا تعلم ما غيرت أمتك وبدلت من بعدك، عما تركتهم عليه من الالتزام بأمر الله سبحانه وتعالى والانتهاز عما نهى عنه، فاللهم ارزقنا الثبات على دينك وسنة نبيك. وهؤلاء المختلجون قيل إنهم أهل الردة الذين ارتدوا عن الإسلام عقب وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وقيل هم أهل الأهواء والبدع الذين فتنوا الناس في دينهم، وقيل: الظلمة المسرفون في الجور وطمس الحق، وفي هذا تهديد شديد لكل من أحدث في الدين ما لا يرضاه الله بأن يكون من المطرودين عن الحوض، نسأل الله العافية ونعوذ به من الخذلان.

ويؤخذ من الحديث: إثبات المعاد، وإثبات الحوض لنبيينا محمد صلى الله عليه بصفته التي نكرتها السنة، والتحذير الشديد من البدع والجور وإضلال الناس وفنتتهم، نسأل الله السداد.

الحديث الرابع والعشرون

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُرَكِّبُهُمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: شَيْخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ»، وفي بعض طرقه: «وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ»^(١).

(١) رواه مسلم (١٠٧)، والنسائي (٢٥٧٥)، وأحمد (١٠٢٢٧).

هذا واحد من أخبار ثلاثة ساقها الإمام مسلم على التوالي في أصناف من الناس لا يكلمهم الله يوم القيامة، واختلف في المعنى الكلام المنفي ها هنا، فقيل: "لا يكلمهم تكليم أهل الخيرات وباطهار الرضى، بل بكلام أهل السخط والغضب، وقيل: المراد الإعراض عنهم، وقال جمهور المفسرين لا يكلمهم كلامًا ينفعهم ويسرهم، وقيل: لا يرسل إليهم الملائكة بالتحية"^(١)، وهذه الوجوه كلها محتملة ولا منافاة بينها.

أما قوله: "ولا ينظر إليهم" أي: يعرض عنهم، فلا ينظر إليهم نظرة رحمة، وهذه مبالغة في العقوبة، وقوله: "ولا يزكّيهم" أي: لا يطهرهم من دنس ذنوبهم، وقيل لا يثني عليهم في الملاء الأعلى تحقيرًا لهم، وأما قوله: "ولهم عذاب أليم" أي: فوق كل تلك العقوبات فسوف يوقع الله تعالى بهم عذابًا عظيمًا في النار، فيضاعف عليهم العقوبة، نسأل الله العافية.

وأما هذه الفئات الثلاث المذكورة في الحديث، فهي: الشيخ الزاني، وقد اختص الشيخ - أي الرجل الذي كبرت سنه - ها هنا دون الشاب، لأنه قد بلغ من الرشد والعقل وذهاب الشهوة ما يردعه عن ذلك، فليس للفاحشة في حاله دواعٍ قوية تغلبه كمثل الشاب، والزنا كله فاحشة ومن الكبائر، سواء من الشاب أم من الشيخ، لكنه من الشيخ أشد وأعظم لقلّة دواعيه وضعف أسبابه.

والملك الكذاب، وهو الأمير الغاش لرعيته، الذي يخدعهم في أمور دينهم ودنياهم ليجور عليهم ويمنعهم حقوقهم، والكذب في كل الأحوال إثم، لكنه في حق الملوك والأمراء أشد وأعظم لأنه كفيل بإفساد الرعية كلها. والعائل المستكبر، وهو الفقير ذو العيال، ولا يقدر على تحصيل نفقتهم، ومع ذلك هو مختال مستكبر، والاستكبار مذموم في كل الأحوال، إلا أنه في حق مثل هذا لا دواعي له، فهو أشد وأعظم، وقد يدفعه الكبر إلى التقاعس عن العمل وكسب العيش فيجوع عياله ويقصر في نفقتهم.

(١) شرح صحيح مسلم للنووي: (٢ / ١١٦).

والعدد ثلاثة ليس على سبيل الحصر، فقد وردت أصناف أخرى من الناس لهم نفس الوعيد، منهم ما جاء في حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه مرفوعاً: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْمَنَانُ الَّذِي لَا يُعْطِي شَيْئًا إِلَّا مَنَّهُ، وَالْمُنْفِقُ سِلْعَتُهُ بِالْحَلْفِ الْفَاجِرِ، وَالْمُسْبِلُ إِزَارَهُ»^(١)، وفي حديث آخر لأبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «ثَلَاثٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَا يُرَكِّبُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: رَجُلٌ عَلَى فَضْلِ مَاءٍ بِالْفَلَاةِ يَمْنَعُهُ مِنَ ابْنِ السَّبِيلِ، وَرَجُلٌ بَايَعَ رَجُلًا بِسِلْعَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ فَحَلَفَ لَهُ بِاللَّهِ لِأَخَذِهَا بِكَدًّا وَكَدًّا فَصَدَّقَهُ وَهُوَ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ، وَرَجُلٌ بَايَعَ إِمَامًا لَا يَبَايِعُهُ إِلَّا لِدُنْيَا فَإِنْ أَعْطَاهُ مِنْهَا وَفَى، وَإِنْ لَمْ يُعْطِهِ مِنْهَا لَمْ يَفِ»^(٢).

فالثلاثة الذين في حديث أبي ذر رضي الله عنه: المنان: وهو الذي يمنُّ بالعتاء بعد أن يعطيه، والمنُّ في العطية هو التفاضل والتعالي على الآخذ، وهذا ينافي ما قدمه له من إحسان، وفيه أيضاً استعباد للمنفق عليه، وكسر قلبه وإذلاله، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب: هو التاجر الذي يحلف على بضاعته كاذباً ليروجها ويحليها في أعين المشتريين بالكذب والخداع، وقد جمع بذلك بين أربع موبقات: الحلف الكاذب، وغش المسلم، وأخذ المال بغير حق، والاستخفاف بحق الله تعالى الذي حلف به، والمسبل إزاره: هو الذي يطيل ثيابه ويتركها تخرج على الأرض تكبراً وفخراً.

والثلاثة الذين في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: رجل كان له ماء زائد عن حاجته، فلم يسق منه عابر السبيل، وهو المسافر المضطر للماء، وقد يهلك بدونه، ورجل بايع الإمام - وهو الخليفة - وعاهده على الطاعة والسمع، لكن ذلك لم يكن

(١) رواه مسلم (١٠٦)، والنسائي (٢٥٦٣)، وأبو داود (٤٠٨٧)، والترمذي (١٢١١)، وأحمد (٢١٣١٨).

(٢) رواه البخاري (٢٣٥٨) ومواضع، ومسلم (١٠٨).

امتثالاً لأمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وإنما لينال من عطاء الخليفة ومتاع الدنيا، فإذا أعطي ما أراد رضي به وتابعه، وإن منع سخط وغضب عليه، ورجل يبيع سلعته مقسماً بالله تعالى أنه اشتراها بثمن معين، فصدّقه المشتري لأجل تلك اليمين، وهو كاذب في يمينه.

وفي الحديث: إثبات المعاد، وإثبات صفة الكلام والنظر لله عز وجل على الوجه اللائق به جل جلاله، من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تكيف، فإن لم يكلم الأصناف المذكورة ولم ينظر إليهم، فهو يكلم غيرهم وينظر إليهم، والله الموفق.

الحديث الخامس والعشرون

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ»^(١).

وهو آخر حديث في صحيح البخاري رحمه الله تعالى وجزاه خير الجزاء، كأنه قصد الحمد والشكر والتقديس لله عز وجل على ما وفقه إليه من إتمام هذا العمل الجليل النافع، وهو أهل الثناء والحمد سبحانه وتعالى.

الكلمة تقال على اللفظة الواحدة، وعلى العبارة التامة، وعلى أكثر من ذلك، قال أهل اللغة: "الكلمة" تقع على الحرف الواحد من حروف الهجاء، وتقع على لفظة مؤلفة من جماعة حروف ذات معنى، وتقع على قصيدة بكمالها، وخطبة بأسرها^(٢).

وقد صرح الحديث بالكلمتين المرادتين، وهما: "سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم"، والتسبيح المقترن بالحمد يعني تنزيه المولى عز وجل عن كل نقص

(١) رواه البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤).

(٢) لسان العرب: (١٢ / ٥٢٤).

وعيب، وحمده على ما يسر عباده إليه من التسبيح والطاعات، وقوله: "خفيفتان على اللسان" أي: سهلتان عليه، لا مشقة في قولهما على أية حال، وسهل أيضًا اعتيادهما وتكرارهما في كل وقت.

وقوله: "ثقيلتان في الميزان"، يعني في وزن الحسنات التي يحصلها العبد عند التلطف بهما، وذلك يوم القيامة حيث توزن الأعمال، ويجازي عليها الله عز وجل، وقوله: "حبيبتان إلى الرحمن" يعني: يحبهما الله سبحانه وتعالى، فهذا يدل على أن تسبيح الله وحمده من أفضل الطاعات والقربات، وأعظمها أجرًا عنده جل وعلا. وفي الحديث: إثبات المعاد، ووزن الأعمال، وبيان سعة رحمة الله بعباده، فهو يجزي على العمل القليل بالثواب الجزيل، والله الموفق.

الحديث السادس والعشرون

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فِي الدِّمَاءِ»^(١)، وفي غير الصحيحين: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحْكَمُ بَيْنَ الْعِبَادِ فِي الدِّمَاءِ»^(٢).

في هذا الحديث تغليظ أمر الدماء، وهي النفوس التي تُقتل ظلمًا، فهي أول ما يقضى فيه بين الناس يوم القيامة، وهذا لعظم أمرها وحرمتها، وقد جاء في حديث آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ النَّاسُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الصَّلَاةُ»^(٣)، ولا منافاة بين الحديثين، فالدماء هي أول ما يحاسب عليه العبد من حقوق العباد، والصلاة هي أول ما يحاسب عليه من حقوق

(١) رواه البخاري (٦٥٣٣) - (٦٨٦٤)، ومسلم (١٦٧٨).

(٢) هذا لفظ الترمذي (١٣٩٦)، والبيهقي في الشعب (٤٩٥٥).

(٣) رواه أبو داود (٨٦٤)، والنسائي (٤٦٥)، والترمذي (٤١٣)، وابن ماجه (١٤٢٥).

الله جل وعلا، وقد اجتمع الاثنان معاً عند النسائي: «أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ الصَّلَاةُ، وَأَوَّلُ مَا يُفْضَى بَيْنَ النَّاسِ فِي الدَّمَاءِ»^(١).

وفي الحديث: إثبات المعاد والحساب، والقضاء بين الناس يوم القيامة، والحكم بين المتنازعين والاقتصاص للمظلوم من ظالمه، وفيه أيضاً تعظيم حرمة الدماء.

الحديث السابع والعشرون

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلَ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ»، وَقَالَ: «افْرُءُوا، فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا» { [الكهف: ١٠٥] }^(٢).

الرجل العظيم السمين يعني: الضخم في جسمه ولا إيمان في قلبه، وفي الحديث: إثبات الميزان الذي توزن به الأعمال يوم القيامة، مثلما في قول الله تعالى: ﴿وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ^(٣) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ { [الأعراف: ٨، ٩].

وظاهر الحديث أن الذي يوزن هو العبد نفسه، بينما دلت أخبار أخرى على أن الوزن يكون للأعمال: الحسنات والسيئات، مثل قوله صلى الله عليه وسلم: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ..» الحديث^(٣)، ودلت بعض الأخبار أيضاً على أن الصحائف التي تكتب فيها الحسنات والسيئات هي التي توضع في الميزان، قال ابن كثير رحمه الله: "يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحاً، فتارة توزن الأعمال، وتارة توزن محالها، وتارة يوزن فاعلها، والله أعلم"^(٤).

(١) رواه النسائي (٣٩٩١).

(٢) رواه البخاري (٤٧٢٩)، ومسلم (٢٧٨٥).

(٣) تقدم تخريجه بفضل الله تعالى. (٤) تفسير القرآن العظيم: (٣ / ٣٩٠).

والميزان بكون بعد الحساب عند جمهور العلماء، قال القرطبي رحمه الله: "وإذا انقضى الحساب، كان بعده وزن الأعمال، لأن الوزن للجزاء، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة، فإن المحاسبة لتقدير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها"^(١)، والله تعالى أعلم.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هناك من يستثنى من الحساب والميزان، فبعض المؤمنين يدخلون الجنة بغير حساب، مثلما ورد في صحيح الأخبار، وقيل: إن بعض الكفار يدخلون النار أيضاً بغير حساب، واستأنس أصحاب هذا القول بالآية الكريمة: **يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ** {الرحمن: ٤١}، والله أعلم، نسأل الله السلامة والعافية.

الحديث الثامن والعشرون

عن صفوان بن محرز المازني، قال: بَيَّنَّمَا أَنَا أَمْشِي مَعَ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا آخِذٌ بِيَدِهِ، إِذْ عَرَضَ رَجُلٌ، فَقَالَ: كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي النَّجْوَى؟ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتَنْزُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيُّ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُونَ، فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ: **هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَّبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَّا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ**» {هود: ١٨}»^(٢).

النجوى: هي التكاليم سرّاً، أو إسرار الواحد بالكلام مع آخر على انفراد، والمراد ها

(١) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة: ص (٧١٥).

(٢) رواه البخاري (٢٤٤١) ومواضع، ومسلم (٢٧٦٨).

هنا: ما يقع بين الله تعالى وبين عبده المؤمن يوم القيامة من إطلاعه على معاصيه سرّاً فضلاً منه سبحانه، وقوله صلى الله عليه وسلم: "يدني المؤمن" أي: يقربه، وقوله: "فيضع عليه كنفه" قال ابن تيمية رحمه الله: "مستفاد من قرب الرحمة، يقال: أنا في كنف فلان أي: في إنعامه"^(١)، قلت: معناه: يلقي عليه ستره وحفظه، فيستره عن رؤية الخلق له، لئلا يفتضح أمامهم فيخزى، وهذا على عكس ما يكون في شأن الكافر والمنافق، فإنهم يفتضحون على رؤوس الأشهاد، جزاء لهم على ما كذبوا على ربهم، ونسبوا إليه ما لا يليق من الزوجة والولد والشريك والند، واللعنة: هي الطرد والإبعاد من رحمة جل وعلا، وتقدير العذاب الدائم في جهنم، نسأل الله العافية.

وفي الحديث: إثبات المعاد والحساب، والتمييز بين حال المؤمن ومن سواه، فقد يحاسب المؤمن على ما كان منه من آثام، إلا أن الله تعالى يستره ويعفو عنه، أما الكافر والمنافق فيفضح أمام الخلائق.

الحديث التاسع والعشرون

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَضَحِكَ، فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟» قَالَ قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «مَنْ مَخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أُجِيرُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي، قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهودًا، قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَيْهِ فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انطِقِي، قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ يُخَلَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، قَالَ فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكَنَّ كُنْتُ أَنْاضِلُ»^(٢).

(١) بيان تلبيس الجهمية: (٨ / ١٦٦).

(٢) رواه مسلم (٢٩٦٩)، وأبو يعلى (٣٩٧٧)، وابن حبان (٧٣٥٨)، والحاكم (٨٧٧٨).

في الحديث يؤتى بأحد العصاة، فيدلي بحجته أمام الله ليخلص نفسه من العذاب، فيقول لربه جل وعلا: "إني لا أجزى على نفسي إلا شاهداً مني"، وكأن الرجل أراد بالشاهد أقربه، ومن كانوا يرونه في الدنيا يأتي تلك الأعمال فيسترونها عليه، أو يدفعون عنه أي تهمة، فيقول الرب تبارك وتعالى له: **{كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا}** [الإسراء: ١٤]، أي: لا أحد أقرب إليك من أعضاء جسدك، ويختم على فمه، فيقال لأعضائه: انطقي، فتتطرق الأركان بأعماله وأفعاله التي باشرها وارتكبتها، لا تتكر مما عمل شيئاً، ولا تخفي شيئاً، ثم يرفع الختم عن فمه ليتكلم بالكلام المعتاد، فيقول لأعضائه التي شهدت عليه: بعداً لَكُنَّ وسحقاً، أي: هلاكاً لَكُنَّ، وقوله: "فعنك كنت أناضل" أي: لأجل خلاصك من العذاب كنت أدافع وأجادل، ومصدق هذا في القرآن الكريم: **{الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}** [يس: ٦٥]، وقوله جل شأنه: **{حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} ﴿١٠٠﴾ وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَالْيَهُ تَرْجَعُونَ ﴿١٠١﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ}** [فصلت: ٢٠ - ٢٢].

وفي نطق الجوارح وإشهادها إعجاز دالٌّ على عظيم قدرة الله تعالى، كما أنه أبلغ مظاهر العدل يوم القيامة، قال القرطبي رحمه الله: "إقرار غير الناطق أبلغ في الحجة من إقرار الناطق، لخروجه مخرج الإعجاز، إن كان يوماً لا يحتاج إلى إعجاز"^(١).

وفي الحديث: إثبات المعاد والحساب، وإثبات صفة الكلام لله جل وعلا على الوجه الذي يليق به، والكلام مع الكفار يكون كلام توبيخ وتبكيك وتقريع، على

(١) الجامع لأحكام القرآن: (١٥ / ٤٩).

النحو الذي تقدم في شرح حديث سابق، وبيان عظمة قدرة الله تعالى وتمام عدله، والله المستعان.

الحديث الثلاثون

عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «الْمُؤَدَّبُونَ أَطْوَلُ النَّاسِ أَعْنَاقًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

الحديث من أهم وأعظم فضائل المؤدبين، واختلف أهل العلم في تأويله، فمنهم من حمّله على ظاهره، قالوا: إذا ألجم الناس العرق يوم القيامة طالت أعناقهم لنّلا ينالهم ذلك الكرب والعرق، ومنهم من حمّلها على المجاز، قالوا: معناه أن المؤدبين أكثر الناس تشوّفاً إلى رحمة الله تعالى، لأن المتشوف يطيل عنقه إلى ما يتطلع إليه فمعناه كثرة ما يروونه من الثواب^(٢)، وقيل: معناه أنهم يكونون سادة ورؤساء يوم المحشر، والعرب تصف السادة بطول العنق، وقيل: معناه أكثر أتباعاً، فكل من سمع النداء للصلاة ولبّاه يأتي تابِعاً لهم، والله تعالى أعلم.

وبالجملة: إن الحديث خرج مخرج الثناء عليهم، والتشريف لهم، فلا شك أنه وعد صادق بحسن الثواب لهم، وفي الحديث: إثبات المعاد، وإثبات بعض الخصوصية لبعض الفئات من الناس، حيث يحشرون على هيئة مخصوصة بحسب ما أسلفوا في دنياهم، والله الموفق.

الحديث الحادي والثلاثون

عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(١) رواه مسلم (٣٨٧)، وابن ماجة (٧٢٥)، وأحمد (١٦٨٦١).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي: (٤/ ٩١، ٩٢).

«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ - أَوْ: وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، أَوْ كَمَا حَلَفَ - مَا مِنْ رَجُلٍ تَكُونُ لَهُ إِبِلٌ، أَوْ بَقَرٌ، أَوْ غَنَمٌ، لَا يُؤَدِّي حَقَّهَا، إِلَّا أَتَيْ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَعْظَمَ مَا تَكُونُ وَأَسْمَنَهُ تَطَوُّهُ بِأَخْفَافِهَا، وَتَنَطَّحُهُ بِقُرُونِهَا، كُلَّمَا جَارَتْ أُخْرَاهَا رُدَّتْ عَلَيْهِ أَوْلَاهَا، حَتَّى يُفْضَى بَيْنَ النَّاسِ»^(١).

الحديث يحذر تحذيراً شديداً من إثم منع الزكاة المفروضة على أصحاب الأموال ونحوها، حيث يبدأ عقابه في المحشر قبل بدء الحساب، فإن كانت تلك البهائم من ذوات الأخفاف كالإبل فإنها تظل تطوؤه بأخفافها دون توقف حتى يبدأ الحساب، وإن كانت من ذوات القرون كالأغنام فإنها تظل تنطحه بقرونها دون توقف حتى يبدأ الحساب، وذلك كله على رؤوس الأشهاد.

وفي الحديث: إثبات المعاد والحشر، وأن بعض الفئات من الناس يحشرون على صورة مخصوصة، ويحصلون على جزء من عقوبتهم قبل بدء الحساب، نسأل الله السلامة والعافية، ونعوذ به من الخذلان.

الحديث الثاني والثلاثون

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ يَشْفَعُ فِي الْجَنَّةِ وَأَنَا أَكْثَرُ الْأَنْبِيَاءِ تَبَعًا»، وفي بعض طرقه: «أَنَا أَوَّلُ شَفِيعٍ فِي الْجَنَّةِ، لَمْ يُصَدِّقْ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَا صَدَّقْتُ، وَإِنَّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيًّا مَا يُصَدِّقُهُ مِنْ أُمَّتِهِ إِلَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ»^(٢).

في الحديث بعض مناقب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وإثبات الشفاعة له، وهو أول من يشفع في الجنة لأنه أول من يدخلها، وشفاعته على أنواع: فمنها

(١) رواه البخاري (١٤٦٠)، ومسلم (٩٩٠).

(٢) رواه مسلم (١٩٦)، وابن أبي شيبة (٣١٦٥١)، والبيهقي في الشعب (٣٠٢).

شفاعته صلى الله عليه وسلم لبعض العصاة يوم القيامة ليدخلهم الجنة، أو ليخفف من عذابهم في النار، وشفاعته لخروج بعض الموحدين من النار بعد دخولها، وشفاعته لمن في الجنة ليرفع درجاتهم فيها، هذا بجانب الشفاعة العامة لأهل الموقف ليقضى بينهم. ومن مناقبه صلى الله عليه وسلم كذلك: أنه أكثر الأنبياء أتباعاً مؤمنين به ورسالته يوم القيامة، ولكثرة الأتباع في الخير فضيلة كبرى، لأنه صلى الله عليه وسلم يؤتى أجور أتباعه، لأن من دعا إلى الهدى فله أجره وأجر من تبعه، وبذلك تظهر هذه الفضيلة لنبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه، وفيه كذلك فضيلة لهذه الأمة، فقد أكرمها الله عز وجل إكراماً لنبيها، فهم نصف أهل الجنة كما دلت على ذلك الأخبار الصحيحة.

وتجدر الإشارة إلى أن ثمة شفاعات أخرى للملائكة، والشهداء، وبعض المؤمنين، وأولاد المسلمين الذين ماتوا صغاراً، والله الموفق. وفي الحديث: إثبات المعاد والحشر والشفاعة، وبيان التكريم الرباني لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

الحديث الثالث والثلاثون

عن الأسود بن سريع رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أَرْبَعَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَصَمٌّ لَا يَسْمَعُ شَيْئًا، وَرَجُلٌ أَحْمَقُّ، وَرَجُلٌ هَرَمٌ، وَرَجُلٌ مَاتَ فِي فَنْرَةٍ، فَأَمَّا الْأَصَمُّ فَيَقُولُ: رَبِّ، لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامَ وَمَا أَسْمَعُ شَيْئًا، وَأَمَّا الْأَحْمَقُّ فَيَقُولُ: رَبِّ، لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامَ وَالصَّبِيَّانَ يَحْدِفُونِي بِالْبَعْرِ، وَأَمَّا الْهَرَمُ فَيَقُولُ: رَبِّ، لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامَ وَمَا أَعْقَلُ شَيْئًا، وَأَمَّا الَّذِي مَاتَ فِي الْفَنْرَةِ فَيَقُولُ: رَبِّ، مَا أَتَانِي لَكَ رَسُولٌ، فَيَأْخُذُ مَوَانِيْقَهُمْ لِيُطْبِعَهُ، فَيُرْسِلُ إِلَيْهِمْ أَنْ ادْخُلُوا النَّارَ، قَالَ: فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ دَخَلُوهَا لَكَانَتْ عَلَيْهِمْ بَرْدًا وَسَلَامًا»^(١).

(١) رواه أحمد (١٦٣٠١)، وابن حبان (٧٣٥٧)، والطبراني (٨٤١).

أربعة أصناف من البشر يدلون بحجتهم يوم القيامة للخلاص من العذاب: الأصم، وهو كل ذي عاهة حالت بينه وبين بلوغه الدعوة، وخص الأصم بالذكر لأن الصمم أشد العاهات التي تعزل الإنسان عن سماع الذكر، فالأعمى يمكنه سماع الدعوة والخطبة والموعظة، وكذلك الأبكم الذي يعجز عن النطق وحده، والقعيد الذي لا يتمكن من المشي، والأصم إذا أمكنه تلقي الدعوة والعلم، ومعرفة أصول الإسلام سقطت هذه الحجة عنه، والله تعالى أعلم.

والصنف الثاني: الأحمق، أي: المجنون الذي لا عقل له ولا فهم، ومن ثم فإنه لا يمكنه فهم الدعوة ومعرفة الإيمان وأركانه، والعمل بها، والصنف الثالث: الشيخ الهرم، أي: من بلغت الدعوة وقد بلغ أرذل العمر، وقد خف عقله وخارت قواه، فلم يمكنه تلقي الدعوة والعمل بها، والصنف الرابع: من مات في الفترة، أي قبل ظهور الإسلام، أو لم يأته نبي يبلغه الدعوة، مثل أهل الجاهلية الذي هلكوا قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم.

وهؤلاء جميعًا حكمهم أنهم يمتحنون في عرصات القيامة، بأن يأخذ الله سبحانه مواليقهم وعهودهم بأن يطيعوه في الحال فيما يأمرهم به، فيقبلون، فيأمرهم - اختبارًا لهم - بأن يدخلوا النار، فمن أطاع ودخلها امتثالًا لأمر الله كانت عليه بردًا وسلامًا، لم تضره، ومن لم يدخلها عصيًّا لأمر الله تعالى سُحب إليها ودفع فيها دفعًا، لأنه إن كان قد عصى الله في عرصات القيامة، بعد ظهور الدلائل القاطعة، فهو في الدنيا أعصى وأكفر، نسأل الله العافية.

وقد اعترض بعضهم على هذا الحديث زاعمين أن الدنيا هي دار الامتحان والتكليف، لا الآخرة، وهذا الاعتراض مردود عليهم، فقد ثبت بصحيح الأخبار أن الإنسان يمتحن في قبره وقد فارق الدنيا، كما يمتحن أهل الموقف جميعًا بأن يؤمروا بالسجود لله تعالى، وغير ذلك، وإنما يكون عدم التكليف بعد أن يقع الاستقرار في الجنة أو النار، وأما في عرصات القيامة فلا مانع من الاختبار، قال ابن القيم رحمه

الله: "قد نص جماعة من الأئمة على وقوع الامتحان في الدار الآخرة، وقالوا: لا ينقطع التكليف إلا بدخول دار القرار، ذكره البيهقي عن غير واحد من السلف"^(١)، وقال ابن كثير رحمه الله: "وهذا القول هو الذي حكاه الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، رحمه الله، عن أهل السنة والجماعة، وهو الذي نصره الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب الاعتقاد، وكذلك غيره من محققي العلماء والحفاظ النقاد"^(٢).

وفي الحديث: إثبات المعاد، وبيان عدل الله تعالى، وأنه لا يظلم أحدًا، ولا يعذب أحدًا إلا بعد بلوغ الحجة.

الحديث الرابع والثلاثون

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ: اللَّهُمَّ رَبِّ هَذِهِ الدَّعْوَةُ التَّامَّةُ، وَالصَّلَاةُ الْقَائِمَةُ آتٍ مَحْمَدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتُهُ، حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٣).

النداء هو الأذان، أي: الإعلام بدخول وقت الصلاة المفروضة، و"الدعوة التامة" يراد بها: ألقاظ الأذان التي يدعى بها إلى عبادة الله تعالى، وهي الدعوة الكاملة التي لا يدخلها تغيير ولا تبديل، بل هي باقية إلى يوم القيامة، والوسيلة: هي المنزلة العالية في الجنة التي لا تتبغى إلا له صلى الله عليه وسلم، والفضيلة: هي المرتبة

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتین: (١ / ٤٠٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم: (٥ / ٥٨).

(٣) رواه البخاري (٦١٤)، وأبو داود (٥٢٩)، والنسائي (٦٨٠)، والترمذي (٢١١)، وابن ماجه (٧٢٢)، وأحمد (١٤٦١٩).

الزائدة على سائر المخلوقين، ويحتمل أن تكون الفضيلة منزلة أخرى.

والمقام المحمود: هو مقام الشفاعة العظمى التي يحمده لأجلها جميع أهل الموقف يوم القيامة، وقد وعده الله تعالى به في قوله تعالى: {عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا} [الإسراء: ٧٩].

وهذا الذكر الوارد في الحديث ينبغي أن يداوم عليه العبد كلما سمع الأذان، ومن فضله أن من واطب عليه استوجب واستحق شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة، وهذه الشفاعة سبب لدخول الجنة بإذن الله تعالى، أو رفع الدرجات فيها، قال ابن تيمية رحمه الله: "من سأل له هذه الوسيلة فقد حلت عليه الشفاعة يوم القيامة، لأن الجزاء من جنس العمل، فلما دعوا للنبي صلى الله عليه وسلم استحقوا أن يدعو هو لهم، فإن الشفاعة نوع من الدعاء"^(١).

وفي الحديث: إثبات المعاد والشفاعة العظمى للنبي صلى الله عليه وسلم، وفي الحض على الذكر والدعاء لا سيما في أوقات الصلاة حين تفتح أبواب السماء للرحمة، والله المستعان.

الحديث الخامس والثلاثون

عن أبي حسان خالد بن غلاق القيسي قال: قُلْتُ لِأَبِي هُرَيْرَةَ: إِنَّهُ قَدْ مَاتَ لِي ابْنَانِ، فَمَا أَنْتَ مُحَدِّثِي عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحَدِيثٍ تُطَيِّبُ بِهِ أَنْفُسَنَا عَنْ مَوْتَانَا؟ قَالَ: قَالَ: نَعَمْ، «صِغَارُهُمْ دَعَامِيصُ الْجَنَّةِ يَنْتَقِي أَحَدُهُمْ أَبَاهُ - أَوْ قَالَ: أَبِيهِ -، فَيَأْخُذُ بِنُوبِهِ - أَوْ قَالَ: بِيَدِهِ -، كَمَا أَخَذَ أَنَا بِصَنْفَةِ ثَوْبِكَ هَذَا، فَلَا يَنْتَاهِي - أَوْ قَالَ: فَلَا يَنْتَهِي - حَتَّى يُدْخِلَهُ اللَّهُ وَأَبَاهُ الْجَنَّةَ»^(٢).

(١) مجموع الفتاوى (١ / ٢٠٠).

(٢) رواه مسلم (٢٦٣٥)، وأحمد (١٠٣٣١)، والبخاري في الأدب المفرد (١٤٥).

دعاميص الجنة: أي صغار أهلها، قال النووي رحمه الله: "وأصل الدعموص: دويبة تكون في الماء لا تفارقه، أي أن هذا الصغير في الجنة لا يفارقها"^(١)، وصنفة الثوب: أي طرفه.

والحديث فيه مواساة جليلة لمن مات له ولد من المسلمين، وفيه إثبات المعاد وشفاعة الولدان لأبائهم، وفيه أيضاً: الحث على الصبر على فقد الولد واحتسابه، وإثبات أن أطفال المسلمين في الجنة إن شاء الله تعالى.

الحديث السادس والثلاثون

عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَوْمَ نَبْدِلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ﴾ [إبراهيم: ٤٨] فَأَيُّنَ يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَئِذٍ؟ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ: «عَلَى الصِّرَاطِ»^(٢).

اختلف أهل التفسير في المراد بتبديل الأرض والسماوات، فذهب جماعة من أهل العلم إلى أن المراد: تبديل أوصافهما، فتبديل الأرض يعني "تغييرها من هيئة إلى هيئة، وهي تسيير جبالها، وطم أنهارها، وتسوية أوديتها وقطع أشجارها، وجعلها قاعاً صافصفاً، وتبديل السماوات: تغيير حالها بتكوير شمسها، وخسوف قمرها وانتثار نجومها، وكونها مرة كالدهان، ومرة كالمهل"^(٣).

وذهب آخرون إلى أن المراد بتبديل ذواتهما بأرض وسماوات آخر، ويبدو أن هذا ما فهمته السيدة عائشة رضي الله عنها من الآية، أن التبديل تغيير الذات، ولهذا سألت: فأين يكون الناس يومئذ، أي: عند تبديل الأرض؟ فقال النبي صلى الله عليه

(١) شرح صحيح مسلم: (١٦ / ١٨٢).

(٢) رواه مسلم (٢٧٩١)، والترمذي (٣١٢١)، وابن ماجه (٤٢٧٩)، وأحمد (٢٤٠٦٩).

(٣) تفسير البغوي: (٤ / ٣٦٢).

وسلم: "على الصراط".

والصراط هو جسر أو قنطرة على النار، يعبر من فوقها الناس إلى الجنة على حسب أعمالهم، وفي الحديث: إثبات المعاد والصراط، نسأل الله السداد.

الحديث السابع والثلاثون

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أَنَّ النَّاسَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «هَلْ تُمَارُونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَهَلْ تُمَارُونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ» قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ، يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ الشَّمْسَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ الْقَمَرَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ الطَّوَاغِيتَ، وَتَبَقَى هَذِهِ الْأُمَّةُ فِيهَا مُتَافِقُوهَا، فَيَأْتِيهِمُ اللَّهُ فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِينَا رَبُّنَا، فَإِذَا جَاءَ رَبُّنَا عَرَفْنَا، فَيَأْتِيهِمُ اللَّهُ فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا، فَيَدْعُوهُمْ فَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانِي جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَجُوزُ مِنَ الرُّسُلِ بِأَمْتِهِ، وَلَا يَنْكَلِمُ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلَّا الرُّسُلَ، وَكَلَامَ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، وَفِي جَهَنَّمَ كَلَالِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، هَلْ رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدَانِ؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ قَدْرَ عِظْمِهَا إِلَّا اللَّهُ، تَخْطِفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُوبِقُ بِعَمَلِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُخْرَدِلُ ثُمَّ يَنْجُو، حَتَّى إِذَا أَرَادَ اللَّهُ رَحْمَةً مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، أَمَرَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ: أَنْ يُخْرِجُوا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ، فَيُخْرِجُونَهُمْ وَيَعْرِفُونَهُمْ بِأَنْوَارِ السُّجُودِ، وَحَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ، فَيُخْرِجُونَ مِنَ النَّارِ، فَكُلُّ ابْنِ آدَمَ تَأْكُلُهُ النَّارُ إِلَّا أَثَرَ السُّجُودِ، فَيُخْرِجُونَ مِنَ النَّارِ، قَدْ امْتَحَشُوا فَيَصَّبُ عَلَيْهِمْ مَاءُ الْحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الْحَبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، ثُمَّ يَفْرُغُ اللَّهُ مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ وَيَبْقَى رَجُلٌ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَهُوَ آخِرُ أَهْلِ النَّارِ دُخُولًا الْجَنَّةَ مُقْبِلٌ بِوَجْهِهِ قِبَلَ النَّارِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ اصْرِفْ وَجْهِي عَنِ النَّارِ، قَدْ قَسَبَنِي رِيحُهَا وَأَحْرَقَنِي نَكَوُّهَا،

فَيَقُولُ: هَلْ عَسَيْتَ إِنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ بِكَ أَنْ تَسْأَلَ غَيْرَ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: لَا وَعِزَّتِكَ، فَيُعْطِي
اللَّهُ مَا يَشَاءُ مِنْ عَهْدٍ وَمِيثَاقٍ، فَيَصْرِفُ اللَّهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ، فَإِذَا أَقْبَلَ بِهِ عَلَى
الْجَنَّةِ، رَأَى بِهَجَّتَهَا سَكَتَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسْكُتَ، ثُمَّ قَالَ: يَا رَبِّ قَدَّمَنِي عِنْدَ بَابِ
الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: أَلَيْسَ قَدْ أُعْطِيتَ الْعُهُودَ وَالْمِيثَاقَ، أَنْ لَا تَسْأَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنْتَ
سَأَلْتَ؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ لَا أَكُونُ أَشْقَى خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: فَمَا عَسَيْتَ إِنْ أُعْطِيتَ ذَلِكَ أَنْ
لَا تَسْأَلَ غَيْرَهُ؟ فَيَقُولُ: لَا وَعِزَّتِكَ، لَا أَسْأَلُ غَيْرَ ذَلِكَ، فَيُعْطِي رَبَّهُ مَا شَاءَ مِنْ عَهْدٍ
وَمِيثَاقٍ، فَيُقَدِّمُهُ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَإِذَا بَلَغَ بَابَهَا، فَرَأَى زَهْرَتَهَا، وَمَا فِيهَا مِنَ النَّضْرَةِ
وَالسُّرُورِ، فَيَسْكُتُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسْكُتَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ اللَّهُ:
وَيَحْكُ يَا ابْنَ آدَمَ، مَا أَعْدَرَكَ، أَلَيْسَ قَدْ أُعْطِيتَ الْعُهُودَ وَالْمِيثَاقَ، أَنْ لَا تَسْأَلَ غَيْرَ
الَّذِي أُعْطِيتَ؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ لَا تَجْعَلْنِي أَشْقَى خَلْقِكَ، فَيَضْحَكُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْهُ،
ثُمَّ يَأْذَنُ لَهُ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: تَمَنَّ، فَيَتَمَنَّى حَتَّى إِذَا انْقَطَعَ أُمْنِيَّتُهُ، قَالَ اللَّهُ
عَزَّ وَجَلَّ: مِنْ كَذَا وَكَذَا، أَقْبَلَ يُذَكِّرُهُ رَبَّهُ، حَتَّى إِذَا انْتَهَتْ بِهِ الْأَمَانِيُّ، قَالَ اللَّهُ
تَعَالَى: لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ»، قَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ لِأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:
إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ: لَكَ ذَلِكَ وَعَشْرَةٌ أَمْثَالِهِ»، قَالَ أَبُو
هُرَيْرَةَ: لَمْ أَحْفَظْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا قَوْلَهُ: «لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ»
قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: إِنِّي سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «ذَلِكَ لَكَ وَعَشْرَةٌ أَمْثَالِهِ»^(١).

قوله صلى الله عليه وسلم: "هل تمارون" أي: هل تشكون، وفي بعض طرق
الحديث: "هل تضارون"، والمعنى: أنكم سترون الله عز وجل في وضوح تام، ودون
أن تضركم هذه الرؤية، كما ترون الشمس في وضوح النهار مضيئة في وقت
الظهيرة، ليس بينكم وبينها سحاب، وكما ترون القمر بالليل ليلة اكتماله بدرًا مضيئًا
في وضوح تام، والتشبيه هنا في الوضوح وزوال الشك، لا تشبيه للخالق بالمخلوق،

(١) رواه البخاري (٨٠٦) وموضع، ومسلم (١٨٢).

وقوله: "كلايب مثل شوك السعدان"، الكلايب جمع كُلاب، وهو آلة حديدية معقوفة يتناول بها الحداد الحديد من النار، والسعدان: نبات ذو شوك، وقوله: "منهم من يوبق بعمله، ومنهم من يخردل" يعني: منهم من يهلك، ومنهم من تقطعه ككلايب جهنم قطعاً صغيرة كالخردل، وقوله: "قد امتحشوا" يعني: احترقوا واسودوا من الاحتراق، وقوله: "كما تتبت الحبة في حميل السيل" يعني: كما ينبت النبات فيما يحمله السيل من طين ونحوه، شبَّههم بذلك لأنه أسرع في الإنبات، وقوله: "قد قشبنى ريحها" يعني: يعني أهلكني وأحرقني، و"نكاؤها": لهيبها وشدة اشتعالها.

ولفظه "ويحك" كلمة رحمة تقال عند العجب والاستتكار، ويقابلها كلمة "ويلك" التي تقال في نفس الموضع إلا أنها كلمة عذاب، وقوله: "فيضحك الله عز وجل منه" نؤمن بها بلا كيف كشأن جميع الصفات، ولا نتكلف تأويلها، ولا نشبهها بصفات المخلوقين، إيماناً بأن الله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: ١١].

وللحديث رواية أخرى عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، زاد فيها أشياء كثيرة على حديث أبي هريرة، منها: أن الأمم تقول يوم المحشر: «عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا، فَاسْقِنَا، قَالَ: فَيَسَارُ إِلَيْهِمْ أَلَا تَرِدُونَ؟ فَيُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطُمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ تَعَالَى مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ»، ومنها: أن الله تعالى يتجلى لعباده «فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ لَا نُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ لَيَكَادُ أَنْ يَقْلِبَ، فَيَقُولُ: هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ فَتَعْرِفُونَهُ بِهَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ فَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لِلَّهِ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ إِلَّا أَدْنَى اللَّهِ لَهُ بِالسُّجُودِ، وَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ اتِّقَاءَ وَرِيَاءٍ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً، كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ عَلَى قَفَاةٍ»^(١).

(١) رواه البخاري (٤٥٨١) مختصراً ومرفقاً، ورواه مسلم (١٨٣) مطولاً.

وفي حديث أبي سعيد أيضاً زيادة في صفة الصراط، أنه «دَحَضَ مَزَلَّةً، فِيهِ خَطَاطِيفٌ وَكَالِإِبْ وَحَسَكٌ تَكُونُ بِنَجْدٍ فِيهَا شُوَيْكَةٌ يُقَالُ لَهَا السَّعْدَانُ، فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرْفِ الْعَيْنِ، وَكَالْبَرْقِ، وَكَالرَّيْحِ، وَكَالطَّيْرِ، وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرَّكَابِ، فَتَاجِ مُسَلَّمٌ، وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ». "دحض مزلة" بمعنى واحد: وهو الموضع الذي تزل فيه الأقدام ولا تستقر، والحسك: شوك صلب من الحديد، و"أجاويد الخيل والركاب" أي: الجيد السريع في الجري من الخيل والإبل، و"مخدوش مرسل" يعني: من يصيبه خدوش من الخطاطيف والحسك أثناء مروره، فيعبر الصراط بصعوبة شديدة، و"مكدوس في النار" يعني: يسقط فيها بوجهه، نسأل الله السلامة والعافية.

وكذلك خالف أبو سعيد الخدري أبا هريرة رضي الله عنهما في ختام الحديث، في مقدار الثواب الذي يناله آخر أهل النار دخولاً الجنة، ففي رواية أبي سعيد: "لك ذلك، وعشرة أمثاله"، وفي رواية أبي هريرة: "لك ذلك، ومثله معه"، قال الحافظ: "وجمع عياض بين حديثي أبي سعيد وأبي هريرة باحتمال: أن يكون أبو هريرة سمع أولاً قوله: ومثله معه، فحدث به، ثم حدث النبي صلى الله عليه وسلم بالزيادة، فسمعه أبو سعيد، وعلى هذا فيقال: سمعه أبو سعيد وأبو هريرة معاً أولاً، ثم سمع أبو سعيد الزيادة بعد"^(١)، والله أعلم.

وفي الحديث: إثبات المعاد والحشر والصراط، ورؤية المؤمنين ربهم عز وجل، وفيه بعض أحداث وأهوال يوم القيامة، وسعة رحمة الله تعالى وعفوه، نسأل الله العفو والعافية.

(١) فتح الباري: (١١ / ٤٦١).

الحديث الثامن والثلاثون

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «إِنَّ اللَّهَ سَيَخْلُصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُنْشَرُ عَلَيْهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصْرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنْتَ كَرُمٌ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظْلَمَكَ كَتَبْتِي الْحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَاكَ عُدْرٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٍ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: أَحْضِرْ وَزَنِّكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ، فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تَظْلَمُ»، قَالَ: «فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كَفَّةٍ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقَلَتِ الْبِطَاقَةُ، فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ»^(١).

قوله صلى الله عليه وسلم: "سيخلص رجلاً أي: سيميز ويختار رجلاً ينادى عليه ليحاسب، وقوله: "تسعة وتسعين سجلاً" أي: كتب وصحائف أعماله السيئة التي كان يعمل بها في الدنيا، والبطاقة: الصحيفة الصغيرة، فهي صغيرة في حجمها مقارنة بالسجلات، لكن مقدارها عظيم بحيث رجحت وثقلت على السجلات.

وقوله: "ولا يثقل مع اسم الله شيء"، أي: إن ثقل كلمة التوحيد أكبر وأعظم من أن يبلغها ويساويها شيء في الميزان، والتوحيد لا يقاومه شيء من المعاصي، بل يترجح ذكر الله تعالى وتوحيده على جميع المعاصي، قال ابن تيمية رحمه الله: "فهذا لما اقترن بهذه الكلمة من الصدق والإخلاص والصفاء وحسن النية، إذ الكلمات والعبادات وان اشتركت في الصورة الظاهرة فإنها تتفاوت بحسب أحوال القلوب تفاوتًا عظيمًا"^(٢).

ويستفاد من الحديث: إثبات المعاد والميزان، وأنه ميزان له كفتان توضع الحسنات

(١) رواه الترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، وأحمد (٦٩٩٤).

(٢) الزهد والورع والعبادة: (١ / ١٦٤)

في إحداهما، والسيئات في الأخرى، وأن الله تعالى يجسم الأفعال والأقوال لتوازن، فنتقل الطاعات وتطيش السيئات لتقل العبادة على النفس وخفة المعصية عليها، نسأل الله العلي القدير أن يتقل موازيننا.

الحديث التاسع والثلاثون

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يَخْلَصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَقْصُ لِعَضِّهِمْ مِنْ بَعْضِ مَظَالِمِ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُدُّبُوا وَنُقُوا أَدْنَى لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لِأَحَدِهِمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا»^(١).

قوله صلى الله عليه وسلم: "يخلص المؤمنون من النار" يعني: بعد أن يتجاوزوا الصراط الممتد فوق النار والعياذ بالله تعالى، وكل منهم يتجاوزه حسب عمله، ثم توقفهم الملائكة على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص المظلوم من ظالمه حقه الذي اعتدى عليه في الدنيا، وهذا إذا كان كلاهما مؤمن وقسم له دخول الجنة، وهذه المقاصة للقوم الذين لا تستغرق مظالمهم جميع حسناتهم، حتى إذا طهروا وتخلصوا من حقوق الناس أدخلوا الجنة، قال ابن تيمية رحمه الله: "فالنفس الخبيثة لا تصلح أن تكون في الجنة الطيبة التي ليس فيها من الخبث شيء، فإن ذلك موجب للفساد، أو غير ممكن، بل إذا كان في النفس خبث طهرت وهذبت، حتى تصلح لسكنى الجنة"^(٢).

وقال ابن القيم رحمه الله: "فالجنة لا يدخلها خبيث، ولا من فيه شيء من الخبث، فمن تطهر في الدنيا ولقي الله طاهراً من نجاساته دخلها بغير معوق، ومن لم

(١) رواه البخاري (٦٥٣٥)، وأحمد (١١٠٩٥). (٢) الحسنة والسيئة: ص (١٠١).

يتطهر في الدنيا فإن كانت نجاسته عينية، كالكافر، لم يدخلها بحال، وإن كانت نجاسته كسبية عارضة دخلها بعد ما يتطهر في النار من تلك النجاسة، ثم يخرج منها، حتى إن أهل الإيمان إذا جازوا الصراط حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيهدَّبون وينقَّون من بقايا بقيت عليهم، قصرت بهم عن الجنة، ولم توجب لهم دخول النار، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة^(١)، نسأل الله العلي القدير أن يجعلنا من أهلها.

ويقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم أعرف بمنزلهم في الجنة من أهل الدنيا بمنزلهم، وقد عرفوا منازلهم في الجنة بتكرير عرضها عليهم بالعادة والعشي وهم في قبورهم. ويؤخذ من الحديث: إثبات المعاد والصراط والقنطرة، والجنة والنار، وتحريم الظلم، والتحذير منه، والتأكيد على رد الحقوق إلى أصحابه، وأنه ما من أحد سيدخل الجنة وفي عنقه حق لأحد من الناس، والله المستعان.

الحديث الأربعون

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحٍ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَسْرَبُونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَأَاهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَسْرَبُونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: وَهَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَأَاهُ، فَيَدْبَحُ ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ»، ثُمَّ قَرَأَ: {وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ} [مريم: ٣٩]، وَهَؤُلَاءِ فِي غَفْلَةٍ أَهْلُ الدُّنْيَا {وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} [مريم: ٣٩]^(١).

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان: (١ / ٥٦).

(٢) رواه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩).

الموت كما الحياة مخلوق من مخلوقات الله جل وعلا، **{الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}** [الملك: ٢]، وذلك الموت يصور يوم القيامة كهيئة كعبش أملح" ، أي: فيه بياض وسواد، لكن سواده أقل، وفي بعض طرق الحديث: فيوقف على السور الذي بين الجنة والنار، فينادى على أهلها، فيشرئبون: أي يمدون أعناقهم ويرفعون رؤوسهم لينظروا إليه، ويعرفون أنه الموت، فيذبح أمام أنظارهم، وهذا على الحقيقة لا المجاز، قال ابن القيم رحمه الله: "فإن الله سبحانه ينشئ من الموت صورة كعبش يذبح، كما ينشئ من الأعمال صورًا معاينة يثاب بها ويعاقب، والله تعالى ينشئ من الأعراض أجسامًا تكون الأعراض مادة لها، وينشئ من الأجسام أعراضًا، كما ينشئ سبحانه وتعالى من الأعراض أعراضًا ومن الأجسام أجسامًا، فالأقسام الأربعة ممكنة مقدوره للرب تعالى" (١).

قلت: وهذا فيه زيادة في نعيم المؤمنين، لأنهم سيعرفون أنهم في نعيم باقٍ لن يزول بموت آخر، **{لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى}** [الدخان: ٥٦]، وفيه نكاية في الكافرين، لأنهم سيدركون حينئذ أن عذابهم لن ينقطع، **{لَا يَقْضَى عَلَيْهِمْ فِيمَوْتُورًا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ}** [فاطر: ٣٦]، وهذا التأييد يختص بالكافرين فحسب، لا أهل التوحيد، نسأل الله العافية.

وفي الحديث: إثبات المعاد والجنة والنار، وأن نعيم الجنة دائم لا ينقطع، والخلود في النار للكافرين، والتحذير من يوم القيامة وأهواله، وحث المؤمنين على الاستعداد له. أسأل الله العلي القدير أن يرزقنا رضاه والجنة، وأن يعيذنا من سخطه والنار، وأن يظلمنا بظلمه يوم لا ظل إلا ظله، وأن يمتعنا بالنظر إلى وجهه الكريم، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح: ص (٤٠١).